

سفر برلك

رواية

دار الساقي

صدر للمؤلف:

- **فتنةُ جدَّة** ط١، رواية، دار رياض الريس ٢٠١٠، بيروت، لبنان (القائمة الطويلة لجائزة الرواية العربيَّة "البوكر" ٢٠١١) الطبعة الثانية دار الساقي للنشر والتوزيع ٢٠١٦.
- **سنواتُ الحبِّ والخطيئةِ**، رواية ٢٠١١، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنشر، عمّان - بيروت (القائمة القصيرة لجائزة الرواية السعوديَّة ٢٠١٢ الدورة الثانية).
- **فتياتُ العالمِ السفليّ**، قصصٌ قصيرةٌ ٢٠١٣، دار فضاءات للنَّشر والتوزيع، عمان - الأردن.
- **خرائطُ المدنِ الغاويةِ**، روايةٌ ٢٠١٤، دار رياض الريس، بيروت، لبنان (الروايةُ الفائزةُ بجائزة الرواية السعوديَّة في دورتها الثالثة ٢٠١٦).
- **زرياب**، رواية، ٢٠١٤ دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان (جائزة معرض الرياض الدولي للكتاب في فئة الرواية ٢٠١٥ - القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب ٢٠١٦، أبو ظبي).
- **البدويُّ الصغيرُ**، رواية، دار الساقي للنَّشر والتوزيع ٢٠١٦، بيروت، لبنان (جائزة سوق عكاظ، فئة الرواية ٢٠١٦- القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب ٢٠١٧).
- **القبطيُّ**، مجموعة قصصيَّة، دار الساقي للنشر والتوزيع ٢٠١٦، بيروت، لبنان (جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة السادسة، فئة القصة القصيرة، الخرطوم، السودان ٢٠١٦).
- **رجلٌ سيئُ السمعةِ**، مجموعة قصصية ٢٠١٧، دار مداد للنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية المتحدة.
- **طيف الحلّاج**، رواية، دار الساقي للنشر والتوزيع ٢٠١٨، بيروت، لبنان.
- **زهور فان غوخ**، رواية، دار الساقي للنشر والتوزيع ٢٠١٨، بيروت، لبنان.

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مقبول العلوي

سفر برلك

حكايةُ الفتى الخلاسي ذيب



الطبعة الأولى 2019

ISBN 978-614-03-2092-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

١

بئرُ درويش – غرب المدينة المنوّرة – ١٩١٥

... سمعتُ صوتاً مثل الصّفير. فتحتُ عينيّ ببطء. لمحته. لأوّل مرّة، أرى القطار. كان يسير على الأرض المنبسطة، مثل ثعبان أسود، ضخم وطويل. من مقدّمته، يتصاعدُ دخان رماديٌّ على دفقات متتالية. صوت اندفاعه الرتيب يقضُّ هدوء الصحراء وصمتها. فتحتُ عينيّ أكثر، رغم نور الشمس الساطع، فرأيته يشقُّ الرمال. يتوارى قليلاً خلف كثيبٍ رمليّ، أو جُبيلٍ صغيرٍ، ثمّ سرعان ما يظهر مرّة أخرى. صاح أحد الرجال: "القطار!".

توقفت القافلة المكوّنة من عدد قليل من الجِمال، والخيول، والحمير. فوق الخيول وبعض الجمال، كان يجلسُ الرجالُ المسلّحون ببنادقهم، ومسدساتهم، وسيوفهم، وخناجرهم. كانوا ملثّمي الوجوه، وعلى خصورهم وصدورهم تلتفُّ أحزمةُ الرصاص. لون وجوههم مثل النحاس الكامد. أعينهم الضيّقة الحمراء تشتعلُ بالغضب والقسوة. على ظهور الحمير "عبيد" صغار السن، عددهم أربعة أولاد يافعين، وأنا خامسهم، مربوطة أيديهم خلف ظهورهم.

كنتُ مقيَّد اليدين، وراكباً على ظهر حمارةٍ سوداء اللون. توقفت القافلة قليلاً لترقب القطار الذي يسير الهوينى، صوب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان قادماً من بلاد الشام. قال أحدهم: "لو واصلنا المسير بلا توقف، فإننا سندخلُ إلى المدينة مع حلول الظلام".

قال أميرهم بصوتٍ غليظ: "سيكون ذلك".

شرب جرعات قليلة من الماء، من زمزمية معلّقة بجانب حصانه. مسح فمه بظاهر كفّه ثمَّ أمرهم بالاستمرار بالمسير. تحرَّكت القافلة المنكوبة طوال النهار بلا توقُّف، وحينما اكتسى الأفقُ بحمرةِ الشفق، والشمسُ أصبحت مثلَ قرص أحمر كبير، لاحت لنا مدينة رسول الله. كنَّا نقفُ على جُبيلٍ صغيرِ الحصى كثيرِ الرِّمال. لمحتُ سورها الطيني الكئيب المنظر يحيطُ بها إحاطة السوار بالمعصم، ومن الأفق المفتوح، رأينا مآذن المسجد النبوي شامخة. رأينا النخيل الذي يحيط بها كحزام أخضر من بساتينها الواقعة على أطرافها الشمالية والغربية. تذكَّرتُ رغبة والدتي في زيارة قبر الرسول. كدتُ أبكي ولكنَّني تماسكتُ. لكزَ رجلٌ من القافلة حمارتي، فهبطتْ مسرعةً من فوق الجُبيل الصغير. حاولتُ أن ألتفتَ ورائي لأرى بقيَّة رجال القافلة باحثاً بين الوجوه عن وجه خالي مانع. قلتُ لنفسي: ربما ضمُّوه إلى قافلتنا قُبيل الوقفة الأخيرة للدخول إلى المدينة. نهرني ذلك الرجلُ بغلظةٍ. كان أسمرَ البشرة، نحيلَ الجسم، غائرَ العينين. ضفيرتا شعره تتدلّيان على كتفيه. رائحته نتنة. يرتدي ملابس ملوَّنة. وحينما أصررتُ على الالتفات، نزعَ سوطَه الجلديّ من خرجه،

وضربني على كتفي وظهري وهو يشتمني بأقذع الألفاظ. تحاملتُ على نفسي، فسكتُّ على مضضٍ. على بوابة الدخول، رأينا رجال العصملي بطرابيشهم الحمراء، وبزّاتهم الكاكيَّة، وشواربهم الكثَّة. كانت بنادقهم التي تحمل في مقدّمتها سكيناً مدببةً مدلاة من على أكتافهم العريضة. أوقفوا القافلة وهم يتأمَّلون وجوهنا بازدراء واحتقار. تقدَّم منهم قائدُ القافلة. توقَّف أمام أحدهم؛ يبدو أنَّه كبيرهم. كان ضخمَ الجثة، أحمرَ الوجه، كثُّ الشارب، ويحيطُ به أربعةٌ من جنود العصملي المسلّحين. ترجّل من فوق جواده. أخرج من حزامه – الملفوف حول بطنه – كيساً صغيراً مملوءاً بالمال. رجّ الكيس براحة يده، فتصاعد صوتُ الجنيهات والريالات المجيديَّة.

ابتسم له العصمليُّ حينما قذفَ الأخيرُ له بكيسِ النقود. سأله بعربيَّةٍ مكسَّرة: "ماذا معكم؟".

قالَ متصرّفُ القافلة بنبرةٍ هادئة: "عبيد، برسم البيع".

أمسك الجنديُّ العصمليُّ بطرفِ شاربه، وقال له وعيناه تفتّشُ في وجوه أفراد القافلة: "هل لديك جوارٍ في قافلتك؟".

أجاب الأخير بحزم: "لا!".

سُمح لنا بالدخول أخيراً. مرقت القافلةُ المنكوبةُ عبر البوابة الضخمة. صاح فيهم متصرّفُ القافلة: "سنتَّجه إلى حي العنبريَّة".

٢

بابُ العنبريِّةِ – المدينة المنوَّرة

لأوّل مرَّة منذُ أكثر من شهر، أسمعُ أصواتَ الناس ولغطهم وضجيجهم. في حي العنبريَّة القريب نسبيّاً من المسجد النبوي، زاد الزحام بعد انقضاء صلاة المغرب. رأيتُ ساحةً كبيرةً في طرفها الغربي، يوجد فيها أعدادٌ كبيرةٌ من الجِمال والخيول: جِمالُ القوافلِ وخيولَهَا ودوابهَا. كان العبيدُ سودَ البشرة، يعلفونها، ويقدِّمون إليها الماء في حيضان كبيرة ممتلئة بالماء. في الطرف الآخر مرجلٌ ضخمٌ عليه قدورٌ نحاسيَّةٌ كبيرةٌ ملطَّخةٌ بالسخام في جوانبها، ويتصاعدُ منها البخارُ. فكّوا وثاقِي أخيراً، فتهاويتُ على الأرض منهكاً. لكزني الرجل ذاته بقدميه آمراً إيَّايَ بالدخول إلى إحدى الحجرات المخصَّصة للعبيد. كان يشيرُ إليها بسبابته. تباطأتُ بسبب شعوري بآلام فظيعة في كتفيَّ وقدميِّ ومعصميَّ، فضربني بالسوطِ على ظهري. مشيتُ مقهوراً صوبَ الحجرة التي أشار عليٍ بدخولها. على مدخل الحجرة، حلَّ وثاقَ قدميَّ، ورفض أن يفكَّ وثاقَ يديَّ. دخلتُ إلى الحجرة. أجلتُ بصري فيها، فرأيتُ داخلها ما يقاربُ

عشرين عبداً وجاريةً. كانوا مكوَّمين حول بعضهم بعضاً مثل ثياب بالية. عيونهم زائغة. تفوحُ روائحُ خانقة من أجسامِهم المتعبة التي لم يمسَّها الماءُ منذ فترة طويلة. كانوا صامتين. يفكِّرون في ما هو آتٍ. ينظرون إلى أرجلهم وأيديهم المكبَّلة بالحبال. جلستُ بطرفِ الحجرة المزدحمة، بالقرب من الباب الذي كان منزوعاً من مكانه ويشرف على الساحة الخارجيَّة الواسعة. أحسستُ بالتعب يدقُّ مفاصلي وعظامي، فغفوتُ رغم لسعات البعوضِ وطنينه المزعج. بعد مرور زمنٍ لا أعرفُ مقداره شعرتُ بيدٍ تهزُّ كتفيَّ بعنفٍ. فتحتُ عينيَّ بصعوبةٍ. رأيتُ رجلاً أسودَ، ضخمَ الجثةِ، أصلعَ الرأسِ، بيده وعاءٌ من حديد. قال لي: "عشاؤك".

مددتُ إليه يديَّ اللتين لا تزالان مقيَّدتين بالحبال. رفعتهما محتجّاً أمام وجهه. قلتُ له: "كيفَ سآكل ويداي مقيَّدتان؟".

حالما سمع كلماتي عبسَ بملامحه. حلَّ وثاقَ يديَّ. تناولتُ القدحَ الذي قدَّمه إلي. كنتُ أشعر بجوعٍ لا قِبل لي به. نظرتُ إلى الإناء، فإذا به قليلٌ من العدسِ وكسرةُ خبزٍ يابسةٌ. حالما هممتُ بتناول الطعام، نهرني الرجلُ الأسودُ وقال لي بصوتٍ عالٍ: "انتظرْ. لماذا أنتَ في عجلةٍ من أمرك؟!".

وضعتُ الوعاءَ بجانبي، وتوقَّفتُ ناظراً إليه. أخرجَ من كيسٍ معه معلَّقٍ على كتفه الأيسر، ويتدلى حتى يصل منتصف جسده، سلسلةً من حديد. ربط بها قدميَّ بعد أن مدَّهما بخشونة أمامه، ثمَّ انصرف. مسحتُ بيدي على رسغي. كان أحمرَ اللون، وفيه جروحٌ تنزُّ بالدم. لكنَّ جوعي كان شديداً. قطعتُ قطعةً من الخبز الجاف،

وتناولتُ أوَّل لقمةٍ لي. منذُ يوم كامل لم يدخل بطني شيءٌ سوى بضع تمراتٍ، وماءٍ مَلْحٍ كان يسقينا إيَّاه أحدُ رجال القافلة من قربةِ ماء ذَات رائحةٍ نتنةٍ. أجَلتُ بصري فيما حولي. رأيتُ مَن هُم معي في الحجرة منَ العَبيد والجواري يأكلون صامتين. لا يكادُ أحدُهم يرفعُ بصرَه نحو الآخر. أسمعُ طحنَ أسنانهم للخبزِ الجاف. أرسلتُ بصري خارج الحجرة. رأيتُ الرجال من أربابِ القوافل يتناولون طعامهم المكوَّن من الأرز واللحم، الذي كان يقدِّمه إليهم عبيدٌ دائبو الحركة، في صحافٍ كبيرة. حاولتُ أن أرى متصرِّفَ قافلتنا اللعين. بعد أن دقَّقتُ النظرَ، لمحته جالساً على دكَّةٍ مفروش عليها سجاجيد ملوَّنة. كان يدخنُ التبغَ مع رجلٍ سمينٍ، أبيضِ اللون، يضعُ فوقَ رأسه عقالاً ضخماً حائلَ اللون، وهمَا يتضاحكان. عدتُ إلى طبقي الذي لم يبقَ فيه إلّا القليل من العدس السيئ الطهي، والممتلئ بالحصى. مسحتُ بأصابعي أعماقَ الطبق وجوانبه، ولعقتُ الذي علقَ به من بقايا العدس. وضعتُ الإناء بجانبي. حمدتُ الله وشكرته. انتهى من التهام الطعام كلُّ مَن كانَ في الحجرة. بعد زمن قصير، ومن نورٍ شحيح يصدرُ من الخارج، رأيتُ معظمهم وقد غطَّ في النوم، وبعضهم لَا يزالون ساهمي النظرات، شاردي اللبِّ.

٣

حوشُ الخازندار– المدينة المنوَّرة – ١

في ضوءِ القمر المتسلل من الباب المفتوح، حاولتُ مرَّة أخرى أنْ أبحثَ بعينيَّ عن خالي مانع، فربما تمَّت مقايضته بعبدٍ آخرَ في قافلة أُخْرَى، وأصبحَ له سيِّدٌ آخرُ غيرُ سيِّدِ قافلتنا اللَّعين. لم أرَه منذُ اختطافنا من بوادي مكة. كانوا يضعون على أعيننا عصاباتٍ سوداءَ اللونِ تمنعنا من الرؤية. كنَّا نعيشُ في ظلام وصمت يوتِّران الأعصابَ. لم يزيلوا العصاباتِ السوداء من فوق عيوننا إلَّا بعدَ عشرة أيام من بدءِ الاختطاف. كانُوا يعيدون وضعها أثناء المسير الصامت. كانَ الكَلامُ ممنوعاً، والاحتجاجُ محظوراً، وكانَ التوجُّعُ ترفاً لا يحقُّ لنا التمتُّع بهِ!

رأيتهم يربطون يديه وقدميه، ثمَّ عصبوا عينيه بقطعةٍ من قماشٍ سوداء اللون. أركبوه على ظهرِ حمارٍ، فلم تقع عينيَّ عليه مرَّة أخرى. ما حدث له حدث لي مثله تماماً. لم أتمكَّنْ من رؤيته طوال الأيام الماضية. لم أسمعْ صوته طوال تلك الرحلة المؤلمة. هل باعوه أم قتلوه، أم قايضوا به رجلاً آخرَ، أو تمكَّنَ من الفرار منهم؟ سمعتُ

نُتفاً من حديثهم أثناء سيرنا، أنَّهم كانوا يوزِّعون العبيدَ والجواري في قوافلَ متعدِّدةٍ. يبيعونهم عن طريق المقايضة: عبدٌ مقابل عبدٍ، جاريةٌ مقابل جاريةٍ أو مقابل قطعةٍ من السلاح... وهكذا. أين هو الآن؟ الحجرةُ مظلمة قليلاً. لا أستطيعُ تمييز الوجوه فيها. عنّ لي خاطرٌ ما. قلتُ بصوتٍ خفيضٍ: "هل هنا رجلٌ يُدعى مانع معنا في هذه الحجرة؟".

لمْ أسمعْ أيَّ جوابٍ! أعدتُ سؤالي بصوتٍ أعلى. سمعتُ غمغماتٍ وهمهماتٍ تدلُّ على نفادِ الصبر. رفعتُ نبرتي سائلاً، فجاءني جوابُ أحدهم طالباً مني بصوتٍ واهنٍ أنْ أصمتَ: "نحنُ متعبون، هل تتفضَّل علينا بالصمت؟".

سكتُّ مُحرجاً. من المؤكَّد أنَّه ليس هنا معنا في هذه الحجرة المكتظَّة المعتمة. لو كان هنا، لأجابني بكلِّ تأكيد. شعرتُ بالأسى يكتسحُ قلبي. لذتُ بالصمتِ. بعد لحظاتٍ قليلةٍ سمعتُ صوتَ شخيرٍ تتخلَّله آهاتُ الألمِ والتعبِ. نام أكثرُ مَن في الحجرة الممتلئة بالعبيد والجواري اللواتي كانَ أكثرهن سوداواتِ اللونِ. حاولتُ أنْ أتبيَّنَ الوجوهَ لكنَّ الظلامَ كان دامساً. نظرتُ إلى الفناء: الحركة قليلة. الجِمالُ رابضةٌ، والنَّارُ مطفأةٌ. قريباً من الحجرة كان هناك رجلان يدخِّنان ويتحدَّثان. يلفَّانِ ورقاً حول قليلٍ من التبغ، ويشعلانه بعودٍ من حطب القدور الكبيرة وهما يتسامران. في الضوء الشحيح الصادر من نار القدور، استطعتُ تمييزَ ملامح أحدهما. كان ذلك هو الرجل الذي عَهَد له متصرِّفُ القافلة حمايتي، ومراقبتي، وإلهاب ظهري بسوطه كلَّ فينةٍ وأخرى. كانا يحرسان حجرتنا، وبجانبهما

كانت بندقياتهما وخنجراهما ملقيان على الأرض. كانا يتحدّثان، ويلتفتان كلَّ لحظة وأخرى نحو حجرتنا المكتظة. حاولتُ الوقوف لكنَّ قدميَّ المكبَّلتين بالقيد الحديدي منعتاني من النهوض. شعرتُ باليأس. لُذتُ بظهري إلى الجدارِ القريب مني متنهداً يائساً. انتشر التعبُ في جسدي، وشعرتُ به يغزو مفاصل وعضلات وعظام جسدي مثل دبيب النمل. داعبَ النعاسُ جفنيَّ، وسرعان ما غططتُ في نومٍ عميقٍ.

٤

بطحاءُ قريشٍ: جنوب مكّة المكرّمة – ١

قُبيل الفجرِ أيقظونا من النوم. طلبوا منّا الاستعداد للخروج. لمْ نعرفْ إلى أين سيأخذوننا؟

حين أرهفتُ السّمعَ سمعتُ متصرّفَ القافلةِ يقول لرجاله: "اذهبوا بهم إلى حوش العبيد القريب من هنا".

شعرتُ بمرارةٍ تكوي قلبي. تساءلتُ: هل سأُباع كعبدٍ وأنا رجلٌ حُرٌّ؟

حلمتُ في نومتي الهانئة القصيرة بأمّي، وبقطيع أغنامِي القليل العدد في باديةٍ مكّة. كنتُ برفقة خالي مانع نرعى الغنم في شعاب بطحاء مكّة. رأيته في غبشة الفجر يبتعد بغنمه ونعاجه عنّي بعيداً طالباً مزيداً من الكلأ والحشائش. قبل أنْ يتوغلَ في البرّ، طلب منّي أنْ أعدَّ "الراكية" لعمل القهوة الصباحيّة المعتادة ريثما يعود. لا أعرف لماذا كان قلبي مقبوضاً اليوم. شعرتُ أنَّ أمراً جللاً سوف يحدثُ لي. حتّى أحلامي في الأيام السابقة تحوّلت إلى كوابيس. مرّات عدّة أنهضُ من نومي فزعاً، وقد تفصّد جسدي بالعرقِ. تشعرُ بي أمّي فتناولني

كوزَ الماءِ الطينيّ الصغير الموجود بجانب سريرها، وهي تحوقل، وتبسمل، وتلعن الشياطين. أشربُ جرعات من الماء، ثمَّ أعودُ إلى النوم ولكنْ بصعوبةٍ.

كنتُ أراقبه وهو يبتعد في طريقة برفقةِ أغنامه والإحساس بخطرٍ داهمٍ أشعرُ به يقتربُ منّي، ولكنّني لا أراه. جلستُ أسفل شجرة سمرٍ كبيرة - تعوَّدنا الجلوس في ظلّها الممدود في الصباح - ورائي الجبال التي يسكنها الفراغُ وتعبثُ فيها الريحُ، وفي سفوحها يكثرُ نباتُ الحرمل والبشام.

هذه هي الحياة التي لا يُغلق عليها بابٌ، ولا تُسدلُ عليها ستارةٌ، فتحجب العالم من حولك.

هذه هي الحياة التي أرغبها بشدَّة وأحبُّها لأنّني أكتسبُ حريتي منها، ومن انفتاحها على الكون بأسره. أخرجتُ من الخُرجِ دلَّةَ القهوة والبُن. وضعتُ في الدلَّة قليلاً من الماءِ. سكبته من الزمزميَّة، وأضفتُ إليه شيئاً من البُن المجروش. أشعلتُ الحطبَ ووضعتُ الدلَّةَ عليه. سرحتُ ببصري في العراء الواسع الممتد أمامي، ونسيتُ نفسي.

و...

فجاةً...

شعرتُ بشيءٍ مثل غمامة سوداء تسقط عليَّ. أشياء لا أعرفها تمسك أطرافي وتكبِّلُ يديَّ وقدميَّ. تحشرُ شيئاً في فمي حتّى لا يتعالى صراخي. مع ذلك صرختُ ولكنَّ صرخاتي كانت مكتومةً ولا تكادُ تخرجُ من فمي. بعد وضع عصابة على عينيَّ حاولتُ الإنصات

لعلّني أعرفُ ما الذي يحدث لكنّني لمْ أسمعْ سوى همهماتٍ، وتلاسنٍ، وزعيقٍ. شعرتُ بشيء ما يلهبُ ظهري، وبطني، وكتفيَّ، ووجهي. سمعتُ كلماتٍ من نوع: "أمسكوه جيداً! شدُّوا وثاقه".

إذن، هؤلاء هُم مَن كانت أمّي تحذّرني منهم!

قاومتُ ببسالة لكنَّ ضربةً قويَّةً شعرتُ بها تسقطُ على هامتي أفقدتني الوعي. قُبَيل فقدان الإحساس التّام بما يحدث لمحتُ خالي مانع قادماً نحوي وهو يجري ويصيح بأعلى صوته: "اللصوص! اللصوص! قُطّاع الطُرق!".

فقدتُ الوعي. ربما لبثتُ في غيبوبتي وقتاً لكنّني لا أعرفُ كمْ بقيتُ على هذه الحالة! شعرتُ بشيءٍ حارقٍ يلسع قدمي، فصحتُ من الألم. فتحتُ عينيَّ. لمْ تكنْ العصابة تغطيهما هذه المرّة. يبدو أنّني وضعتُ قدمي اليسرى على جمر "الراكية" فأحرق قدمي وساقي. تلفّتُ حولي، فلمحتهم يقيّدون خالي مانع في قدميه ويديه، ويحشون قطعة من قماش في فمه. عصبوا عينيه بعصابة سوداء. كانوا يلهثون. سمعتُ أحدهم يقول إنّه استطاع الإفلات منهم في الصحراء، ولكنّهم طاردوه على خيولهم حتّى أمسكوه بصعوبةٍ في نهاية الأمر. سمعتُ لهاثهم ولعناته تتناثر من فمه. تناول أحدهم سوطاً، ثمَّ بدأ جلد خالي مانع الذي كان يتقلّب على الرمل من الوجعِ وصرخاته المكتومة تشبه الأنين.

٥

بطحاءُ قريشٍ: جنوب مكّة المكرّمة – ٢

سمعتُ صوتاً خشناً يقول لي: "سنبيعك!".

كانوا جالسين حول بعضهم بعضاً يرتشفون ما تبقى من القهوة في دلّتي. خيولهم وجِمالهم مربوطة حول شجرة السمر. أسلحتهم موضوعة على الأرض بجانبهم. حاولتُ التملّص من قيودي. لمْ تكنْ قطعة القماش محشوّة في فمي. والعصابة السوداء أُزيحت من فوق عينيَّ. حاولتُ الوقوفَ. حالما فعلتُ ذلك اقتربَ مني واحدٌ منهم وبيده سوطٌ جلديٌّ، فأخذ يضربني ضرباتٍ ألهبت ظهري. قال أحدهم ضاحكاً: "اهدأ أيُّها العبدُ!".

لمْ أحتملْ كلامهم الجارحِ. وجدتُ نفسي أصيحُ فيهم بكلِّ ما أُوتيتُ من قوّةٍ: "أنَا لستُ عبداً. انَا رجلٌ حُرٌّ. مَن أنتُم؟ وماذَا تريدُونَ منّي؟".

لمْ يجيبوني سوى بضحكاتهم الصاخبة. قال لي رجلٌ بدَا لي أنَّه كبيرهم: "بلْ أنتَ عبدٌ، وسوفَ نبيعك في دكّة العبيدِ في جدّة، أو حوش العبيد في المدينة، أو ربما لشيوخ القبائل في نجد!".

صحتُ بأعلى صوتي: "أنَا لستُ عبداً لأحد. وستندمُونَ!".

تلاشت ضحكاتهم حالما سمعوا كلمتي الأخيرة. نهضَ رجلٌ آخر، فنهضوا كلهم معه. يبدو أنَّه كبيرهم. اقترب منّي. كان يحملُ بيده عصاة غليظة. انهال عليَّ بالضرب المبرح حتَّى غبتُ عن الوعي.

بعد زمن صحوتُ من غيبوبتي. وجدتُ نفسي راكباً على حمارةٍ سوداء. كانت تسيرُ على الرمال، وأنا أتأرجحُ فوقها مقيَّدَ الرجلين، ومشدودَ الوثاق على رقبتها. شعرتُ بالآم قاسيةٍ في ظهري بسببِ وضعِ ركوبي الخطأ على ظهر الحمارة. كنَّا نسيرُ صامتين. شعرتُ بالظمأ يحرق جوفي. طلبتُ منهم ماءً، فلمْ يستجيبوا لي. طلبتُ الماءَ مرَّة أخرى، فتجاهلوني. في المرَّة الثالثة، حالما تفوَّهتُ بكلمة: ماء، شعرتُ بضربةِ سوطٍ على ظهري، وبصوتٍ خشنٍ يقول: "لمْ يحن الوقت بعد. اصبرْ أيُّها العبدُ!".

كدتُ أصرخُ في وجهه، وأقولُ له إنَّني لستُ عبداً، ولكنّني سكتُّ مرغماً خشيةَ ضربهم الذي يشتعل في الجسد مثل النار. كنتُ متعباً وخائفاً، عطشانَ وجائعاً. وجدتُ نفسي في حالتي المزرية أفكِّرُ في أمِّي. سالت دموعي على خدي. من المؤكَّد أنَّها لن تحتمل فقدي، وستموتُ من الحزن والخوف. ستقضي نحبها في الصحراء والبر الفسيح وحيدةً. ربما أكلت الوحوشُ جثتها لأنَّها لنْ تجدَ مَن سيحفر لها قبرها ويواريها التراب. بكيتُ بصمتٍ شاعراً بالغبنِ والقهرِ وقلَّة الحيلة. مَن هؤلاء الناس؟ أهم أولئك الذين ما فتئت أمِّي تحذِّرني منهم في كلِّ فجرٍ قبل الذهاب بأغنامنا إلى المرعى في الصحراء؟ كانت تقولُ لي ونحن نتحدَّث ذلك الحديث العذب الذي يسبق النوم:

"قُطّاعُ الطُرق، اللصوص، لعنهم الله. لا تفرط في حذرك منهم. خلَّك ذيب مثل اسمك. ليش أنا سميتك ذيب!".

توقَّفتْ لحظة ثمَّ قالتْ: "حاول أن تتحاشى الابتعاد كثيراً عن البيت، وعن خالك مانع. لا بدَّ أن تكونا قريبين من بعضكما بعضاً".

تتنهَّد. يأتيني صوتها هادئاً مسافراً عبر ظلام الخيمة.

– لو شاءت المصادفات والتقيتهم، فأطلق ساقيك للريح. دعْ كلَّ شيءٍ خلفك واهربْ، ولا تتوقَّفْ أبداً. لا تهربْ منهم على الأرض المستوية، بل اصعد الكثبان الرملية، أو انطلق صوبَ الجبال القريبة. خيولهم وجِمالهم سيبطؤ سيرها أثناء صعودها الرِّمال والجبال، وستزيد فرصتك في النجاة منهم! هل فهمتَ ما أقولُ؟

لا أجيبُ. واصلتْ كلامها وأنَا أسبحُ بخيالي متوهّماً مطاردةً وهميَّةً ساخنةً أشبه بمغامرةٍ مجنونةٍ، وأعيش لحظاتها المُرَّة، رغم أنَّني آمنٌ في خيمتنا بجوارها، وبمسافة ليست بعيدة عن خيمة خالي مانع. قالت: "سيتعبون في نهاية الأمر، ويتركونك في شأنك. المهم ألا تستسلم".

تسكتْ كأنَّها تقيسُ وقع كلامها عليِ. أسمعها تتنهَّد مرَّة أخرى. تطردُ هواجسها، ثمَّ تقول لي: "أسألُ الله أنْ يحميكَ منهم، ومن شرِّهم".

نتوقَّف عن الكلام. أقولُ لها: "ولماذا يفعلُون ذلك؟".

تصمتْ قليلاً قبلَ أنْ تجيبَ: "يخطفون الأطفال ومَن هم في بداية سن الشباب في البوادي والأماكن البعيدة والمهجورة ليبيعوهم كعبيدٍ".

أسألها: "لماذا؟".

تجيبُ كأنَّها تستغربُ سؤالي: "مِن أجلِ المالِ!".

تستغفرُ ربها، وتواصلُ سكبَ مخاوفها.

– هم لا يخطفون إلّا أبناء البوادي والقرى خصوصاً ممَّن هُم من ذوي البشرة السمراء، الخلاسيّون، مثلك تماماً، الذين يعيشون بعيداً عن الحواضر والمدن. يدركون أنْ لا أحدَ سيسأل عن اختفائهم!

أسألها: "وأين يبيعونهم؟".

تقول لي: "هناك في المدن البعيدة، وفي قلب الصحراء لأمراء البدو، وشيوخ القبائل، وربما في أماكن لا تخطر على البال!".

يشملنا الهدوء. أرغبُ في سؤالها عن والدي، ولكنَّني أسمعُ صوتَ تنفسها المنتظم، فأدركُ أنَّها نائمةً. أغمضُ جفنيَّ بدوري، ثمَّ أنام.

٦

بالقربِ من وادِي الفرعِ – جنوب المدينة المنوّرة

سرنا أياماً طويلةً في أرضٍ لم يسبق لي رؤيتها، أو المشي فوقها. أنا الرّاعي الذي تعرفني أرجاءُ البرّ الفسيح حول مكّة، شعابها وأوديتها، شمالها وجنوبها، شرقها وغربها، منذ نعومة أظفاري. كنّا نتوقف أحياناً لتناول الطعام المكوّن من التمر، وقليلٍ من الحليب الذي يحلبه أحدُ الرجال، كيفما اتفق، من الشياه والنوقَ التي تكون في القافلة، أو تلك الأغنام التي نقابلها ترعى في الصحراء والأودية. أدركتُ أنّهم يسيرون في أماكن وطرق بعيدة عن الدروب المتعارف عليها. يسيرون بين الجبال، وفي بطون الأودية المعزولة التي لا يطرقها البشر. لهم محطات سريّة معروفة، يتوقّفون فيها لينالوا قسطاً من الراحة، ولتناول الطعام. سرنا حوالى عشرين يوماً. كانوا يسيرون ببطء. يلتقون أحياناً ببعض اللصوص وقُطّاع الطُرق من أشباههم، فيتبادلون معهم العبيد، وبعض المؤونة والأسلحة. كانوا يرفضون أن يبادلوا العبيد الذكور بالجواري، فالجواري دائماً باكيات، ولا يصمتن حتّى لو ضربوهنّ وعذّبوهنّ. وهُنّ لا يقدرن على المسير

الشاق في بطون الأودية، أو تسلُّق الجبال. يخافون أن تحنَّ قلوبُ الرجال إلى الجواري، فقد يصبحون مسالمين ودودين، فيفقدون خشونتهم وغلظتهم. كانوا يفضِّلون الأولاد اليافعين، أو من صغار السن.

مع الاستمرار في السير هدأت حركتي، والتزمتُ الصمتَ، ما ساعد في تخفيف ملاحظتهم لي. انصرافهم عن مراقبتهم لي جعلني في حالٍ أفضل قليلاً. لوْ لمْ أكنْ مقيَّدَ القدمين أو اليدين، لاستطعتُ الإفلاتَ منهم، ولكنَّهم لا يغفلون أبداً عن وضع القيد في رجليَّ أو يديَّ بالتناوب. أغاروا في طريقهم على بعض الخيام البعيدة عن الناس. أسروا شباباً يافعين في مثل سني وأصغر. كانوا جميعهم في مثل لوني الأسمر المحروق، كما كانت تصفني أمّي. فعلوا بهم ما فعلوه بي بالتمام والكمال. يظلُّون يضربونهم بالسياط حتَّى يضطر أولئك المساكين إلى السكوت خشية استمرار الضرب. في إحدى محطات التوقُّف، استغل أحدُهم فرصةَ تناول الغداء، فأطلق ساقيه للريح. رموا تمرهم على الأرض، وأراقوا حليبهم. طاردوه حتَّى أمسكوا به. لم يبتعد المسكين كثيراً. حالما أمسكوه، انهالوا عليه بالضرب بعصيِّهم وأسواطهم. ضربوه بأعقاب بنادقهم حتَّى فارق الحياة. صمُّوا آذانهم عن صراخه وبكائه. استعطفهم، وكلَّما زاد رجاؤه، ضربوه أكثر. قُبيل الفجر مات. لم يكلِّفوا أنفسهم عناء حفر قبر له، فألقوه أسفل شجرة عُشر، وتركوه لقمة سائغة لبنات آوى، والثعالب، والذئاب. بكيتُ بصمتٍ لمصير هذا الفتى اليافع. البقيَّةُ من الأطفال الذين خطفوهم شلَّ الرعبُ ألسنتهم، وكبَّل أجسادهم،

فلم يبكوا. أصبحوا مثل كومة من المخاوف، ولمْ تصدرْ منهم أدنى حركة. أعينهم لا تطرف، وعلى وجوههم بان الفزعُ والخوفُ المخلوط بالكمدِ والقهرِ. بعد هذه الحادثة لمْ يجرؤ أحدٌ على الهرب أو حتَّى مجرَّد التفكير فيه. ساعدهم هذا على تخفيف الرقابة علينا، بل كانوا ينامون ملءَ جفونهم، وقد أدركوا أنَّ أحدنا لن يجرؤ على الهرب. بل إنَّهم كانوا - بمرور الأيام - يطلبون منَّا أنْ نجمعَ الحشائش والشجيرات الصغيرة، ونقدِّمها علفاً إلى الخيول والجِمال والحمير، وننظِّف الأوعية من بقايا الطعام، ونفرش المفارش أثناء الراحة. جعلوا منَّا عبيداً بالقوَّة، وتحت سلطة الخوف والرعب.

٧

منطقةٌ غيرُ معروفةٍ جنوب المدينة المنوّرة

ذاتَ مساءٍ التقوا بعض رفقائهم من قُطّاع الطرق واللصوص. تبادلوا معهم بعضَ الأطفال المخطوفين اليافعين، وبعض الملابس والأسلحة، والخيام الصغيرة الحجم التي يمكن نصبها وطيُّها بسرعة وبأقل وقت وجهد. انضمَّ إلى قافلتنا طفلٌ ربما لمْ يبلغِ الثانية عشرة من عمره، يلبسُ ثوباً أبيضَ قصيرَ الأكمام. كانَ جميلَ الصورةِ. لونه ليس مثل لوننا، بل كان أبيضَ اللون. كان يبكي بلا انقطاع مثل طفل أضاع أمّه. وكلما زاد بكاؤه، زادوا في ضربه. في اليوم التالي، وفي أثناء إحدى الوقفات للاستراحة، وتناول الطعام، تشاوروا قليلاً. كانوا يتحدّثون مع بعضهم بعضاً ويشيرون بأصابعهم نحوه. توقّفوا فجأةً عن ضربه وسط دهشتنا. لاطفوه قليلاً. سألوه لأوّل مرّة عن اسمه. قال لهم إنَّ اسمه فارس. سألوه عن أبيه، وأمّه، وعشيرته؟ فكان يجيبهم زائغَ النظراتِ دامعَ العينين. أمروه أنْ يتناول الطعام معهم، وألا يشاركنا الأكلَ والنوم. خصّصوا له إناءً وحده ليأكل ويشرب فيه، وأعطوه فراشاً نظيفاً، وغطاءً من وبرِ الجملِ. منحوه زمزميّةً كاملةً ممتلئةً

بالماءِ ليشرب منها متى شاء. وعدوه أنْ يوصلوه إلى أهله في أقرب فرصة ممكنة. اطمأن قلبُ الفتى لهم. قلَّ بكاؤه، وهدأتْ نفسه. كنتُ أنظرُ إليه مستغرباً أنْ يكونَ مثل هذا الصبي، الذي يبدو مرفَّهاً، أنْ يكونَ من الأعراب الرعاة في الصحراء مثلنا. لا ثيابه تدلُّ على ذلك، ولا طريقته في الكلام، ولا أسلوبه في التعامل، بل لاحظتُ أنَّه قد بدأ يبتسمُ قليلاً. ليست ابتسامةً حقيقيَّةً، بلْ تبدو كأنَّها متشكِّكةٌ وعلى مضضٍ. كلَّما قالوا له إنَّهم سيعيدونه إلى أهله، انبسطت أساريره، فشعَّ وجهه البريءُ بالابتسام. لمْ يعجبني تعاملهم معه بهذه الطريقة. ربما كانوا يطمحون إلى مالٍ أكثر عندما يعيدونه إلى أسرته مدَّعين كذباً وبهتاناً أنَّهم وجدوه تائهاً في الصحراء. ذاتَ مساءٍ وصلنا إلى منبسطٍ رمليٍّ أبيض اللون لافت للنظر بنقائه ونظافته. أنخنا ركائبنا حوله. طلبوا منا - نحن العبيدَ - أنْ نُعدَّ العشاءَ والقهوةَ، وأنْ نعلفَ الخيولَ والجِمالَ، ثمَّ نحلبُ بعض النوق. فعلنا ما أمرونا به بلا تردد خوفاً من أنْ نثيرَ سخطهم وغضبهم الذي لا نعلم إلى أيِّ مدى ممكن أن يكون. بعد تناول العشاء لفُّوا سجائرهم ودخَّنوا. أخذ أصغرهم سنّاً يُلقي على مسامعهم قصائد لمْ نفهم معظم كلماتها. شربوا الكثير من القهوة. شعرنا بالتعب - نحن العبيدَ - فنمنا من الإرهاق والتعب، بعد أن قيَّدوا أرجلنا بالحبال. صحوتُ في منتصف الليل على صوتِ صرخاتٍ. رفعتُ رأسي فوجدتُ اثنين من رجال القافلة يمسكان بالفتى الصغير فارس بقوَّة وهو يحاول التملُّص منهما. بكى، فصفعه أحدهما على وجهه صفعةً مزّقت سكونَ الليل. ثم سحبه رجال القافلة على الرّمال مثل شاةٍ ذبيحةٍ وابتعدوا قليلاً عن مكان النوم. فهمتُ ما

الذي يريدون فعله بهذا الطفلِ المسكين. حاولتُ أنْ أفعلَ شيئاً لكنَّ الخوفَ والرعبَ كبّلاني وقيّدا حركتي ولساني. رأيتهم في ضوءِ القمر – الذي كان بدراً – يجرّدونه من ثوبه الأبيض، ثمَّ يتناوبون على مؤخّرته. سففتُ الترابَ القريبَ مِن فمي من الغضب، وعضضتُ على ظاهرِ كفّي من الغيظ. لمحته يستعطفهم بصوتٍ باكٍ أن يتركوه وشأنه، ولكنْ بلا فائدة. قاومهم أوّل الأمر بقوّةٍ، لكنّهم أوثقوا يديه بحبلٍ لفّوه حول رقبته، ومدّوه حتى خلف ظهره. تلاشت قواه، فلمْ يعدْ يقاوم. سلّمهم جسده وهو يئن من الألم. انهالت دموعي رغماً عنّي. عندما فرغ منه آخر رجل تركوه في مكانه. توسّدوا فرشهم المتّسخة، ثم ناموا، وعلا شخيرهم. لم يغمض لي جفن. لبثتُ في مكاني جامدَ الأطراف، مفتوحَ العينين، داميَ القلبِ، جريحَ الفؤادِ. حالما شعَّ ضوء الشمس. نهضتُ من نومي المتقطّع. تلفتُّ حولي. كانوا لا يزالون مستغرقين في النوم. لمحتُ جسد فارس ملقى على الأرض، مُكبّاً على وجهه. كانت بعض خصلات شعره الناعم تتحرك مع نسيم الصباح. لمحتُ بقعة دم كبيرة على ثوبه الأبيض من الخلف. حاولت حلَّ قيدي لكنّني فشلتُ. اقتربتُ منه زاحفاً على بطني. كان وجهه معفّراً بالتراب. رأيتُ حبلاً ملتفّاً حول رقبته البيضاء. دنوتُ منه. هززتُ جسده لأوقظه من نومه. أزحتُ الحبلَ مستخدماً أسناني من حول رقبته، وقد عزّ عليَّ البكاء والنحيب. حاولتُ، وحاولتُ، ولكنّه قد فارق الحياة. رأيتُ رملاً محشوراً داخلَ فمه. وخدوشاً لا تزال تنزُّ بالدم على خديه ورقبته وصدره. انسحبتُ زاحفاً إلى مكاني، وقد زهدتُ في الحياة، وتمنيتُ أنْ أموتَ في هذه المفازة.

في رأسي الصغير، تجول مئاتٌ من الأفكار الشريرة. كانوا نائمين. لمحتُ أسلحتهم بجانبهم. عضضتُ شفتي السفلى من الغيظ. اقتربتُ زاحفاً منهم بحذرٍ. ماذا لوْ أنَّني أخذتُ إحدى هذه البنادق وفجَّرتُ رؤوسهم الواحدَ تلو الآخرَ. لكنّني تذكَّرتُ أنَّني لا أجيدُ استخدامَ السلاح. اسمي ذيبٍ ولكنَّني ذئبٌ بلا أسنان ومنزوعُ المخالب. سأتناول خنجراً أحلَّ به قيدي، وأذبحهم ذبح الشياه. اقتربتُ بحذرٍ من أقربهم مسافة مني. كان خنجره بجانب رأسه. حالما دنوتُ منه، فزّ من نومه كالملدوغ ناظراً إلي. سحب خنجره من جرابه، وصاح في وجهي: "ماذا تريد أيُّها العبدُ؟".

لمْ أفه بكلمة. أشرتُ إلى جسد فارس المسجّى على الرمال، وقلتُ له والكلمَات تأبى الخروج من حلقي: "يبدو أنَّه ميتٌ".

نظر إلى حيث أشرتُ. مدَّ بصرَه نحوه. أيقظَ رئيسهم من النوم بهزَّةٍ على كتفه. نهض مثل ثور هائج. أشار له برأسه إلى جثة فارس. نظرَ نحوها قليلاً. أشاح بيده اليمنى، وقال بكلِّ برودٍ: "ادفنوه في مكانه".

٨

بئرُ درويش: غرب المدينة المنوَّرة

انطلقت قافلتنا المنكوبة بعد أن دفنّا فارس. عهدوا لنا مواراة جثته التراب. قالوا لنا إنَّ حيَّةٍ سامَّة لدغته وهو نائم، فمات! بعضُ الأولاد بكوا، ربما من الخوف، أو من أن يلاقوا المصير نفسه. كنتُ الوحيدَ الذي يعرفُ ما حدث لفارس. لمْ تلدغه حيَّةٌ كما كانوا يقولون! هم قتلوه، ولكن بأشنع قتلة يمكن أنْ يتعرّض لها أيُّ إنسانٍ. لم يأبهوا ببكائهم. طلبوا منّا أنْ نستعدَّ لمواصلة المسير بعد أن نتناول قليلاً من الطعام والشَّراب. حفرنا حفرةً ليست عميقة لتواري جسدَ فارس. لمْ نستطع أن نحفر أكثر في جوف الرمال لأنَّنا كنَّا نستخدمُ أيدينا في الحفر وإزالة التراب. طلبنا منهم أن يساعدونا في حفر القبر ولكنَّهم رفضوا. حفرنا حتَّى نالنا التعب. كنا نحفر القبر ونحن نبكي بصمتٍ. تعالى بكاؤنا حينما وسَّدناه التراب. كانت لحظات قاسية ومؤلمة. ربما لأنَّنا كنَّا نجابه أحدَ شعائر الموت لأوَّل مرَّة في أعمارنا الغضَّة.

كانت أمِّي تحكي لي عن موت والدي. مات بالجدري. تقول

لي: "لَمْ نكنْ نسكن هنا في الصحراء".

ذات يوم تحدّثني عنه:

" كان لنا بيتٌ في مكّة بالقربِ من الحرم. كان أبوك من أعيان مكّة، ولكنَّ الزّمان جال عليه جولةً قاسيةً جرّدته من كلّ ما يملك، فأصبح فقيراً معدماً. أصيب أبوك بالجدري بعد انتهاء موسم حج عمل فيه بكدٍ مطوّفاً ودليلاً مع حجاج جاؤوا من بلاد شنقيط. مع نهاية موسم الحجّ، تفشّى فيهم مرضُ الجدري، فانتقلت العدوى إلى أبيك. شاعَ الخوف بين سكان الحي بسبب إصابة أبيك بالمرض. أهل الزقاق على رأس العمدة خيّرونا بينَ أن نذهب إلى المحجر الصحي في جدّة، أو نذهب به خارج مكّة ننتظر مصيره، فإمّا الشفاء التام، وإما الموت. رفضتُ أنْ أذهبَ بأبيك إلى المحجرِ الصحي في جدّة. ما نسمعه من أمراض حلّت في قاطنيه تجعلُ المرءَ يفكّر ألف مرّة قبل الذهاب إليه. اخترنا أنْ نذهبَ به خارج مكّة في الصحراء. قلنا: ربما الهواء النقي الجاف والرمل الساخن سيساعدانه على الشفاء. كثيرٌ من الناس أصيبوا بالجدري، ولكنّهم تماثلوا للشفاء في آخر الأمر. كان لديَّ أملٌ ألا يموت أبوك. سيمدُّ الله في عمره. لكنَّ الموتَ قال كلمته الفصل. قالوا لنا: إذا كُتب له عمر جديد، فارجعوا. خرجنا ولم نعدْ إلّا والأحزانُ قد اشتملتنا وخيَّمت علينا لأنَّ أباك مات بعد أسبوعين من الخروج من مكّة. فتكَ به المرضُ، وكان وقعه شديداً عليه. دفنته بمساعدة خالك مانع في الصحراء. كنت لا تزال في بطني، في الشهر التاسع. ولدتُ بعد آلام مخاضٍ قاسٍ وعسيرٍ. أخرجتك من بطني في خيمة في العراء. قطعتُ سرَّتكَ بمساعدةِ خالكَ مانع الذي أبى إلّا أنْ يكونَ معنا في الصحراء.

قال لي: "أنتِ أُختي الوحيدة. لنْ أدعك بمفردك تجابهينَ أخطارَ الصحراء والموتَ. سأكونُ معكِ، والله الحافظُ والمعينُ".

حينما عدتُ إلى مكّة بعد ولَادتكَ بأربعين يوماً وجدنا أُناساً غرباء لمْ نرَ وجوههم من قبل استولوا على بيتنا بلا وجه حقٍّ. قيل لنا أنَّهم من أقرباء عمدة الحيِّ. طردناهم منه. وبسبب موقفنا، أدخلَ المتنفِّذون من أهلِ الحيِّ خالك مانع المحجر الصحي بذريعة أن يبقى هناك حتَّى يتأكَّدوا من أنه غير مصاب بالمرض. خالك مانع كان سليماً معافى، قوّي الجسدِ، ولمْ يُصبْ بالمرض. شعرتُ بالخوفِ عليه. سيموتُ بأحد الأمراض المتفشية لو طال أمد مكوثه هناك، ولكنّني قاومتُ رغبتهم في الاستيلاء على البيت. بعد سبعة أيام من إيداعِ خالكِ مانع المحجرَ بالقوَّةِ الجبريَّة، وقد استعانوا بعساكر الشريف (شريف مكَّة) لتنفيذِ أمرِ الحَجْرِ، جاءني عمدةُ الحيِّ، وقال لي إنَّه لا بدَّ من أخذك، أنتَ الطفلَ الرضيع، أيضاً إلى المحجرِ الصحيِّ، وحينما رفضتُ ساوموني على التنازل عن البيت أو إدخالك بجانب خالك المحجرَ الصحيَّ. تنازلتُ لهم عن البيت مكرهةً، لكنَّني اشترطتُ عليهم أن يخرجوا خالك أولاً. لا أريد أن أخسركما، فأنتما كلُّ ما تبقي لي في هذه الحياة. حينما وضعوا بصمة إبهامي على صكِّ التنازل من البيت، أخرجوا خالك من المحجرِ. عُدنا إلى الصحراء مرَّة أخرى. كافحَ خالك مانع بعدَ خروجه لاسترداد البيت، ولكنَّه فشل. حينما ضايقهم بالمطالبة بالبيت المسلوب، هدَّدونا بأخذنا جميعاً إلى المحجرِ الصحيِّ، وأقسموا بأغلظ الأيمان ألا نخرج منه ما دمنا على قيد الحياة. لم يكن يهمني مصيري، ولا مصير خالك، فهو قادر أن يتولَّى أمرَه بنفسه، أنت الوحيد الذي كنتُ أهتمُّ بأمره. من أجلكَ، تنازلنا عن كلِّ شيءٍ. تركنا لهم كلَّ شيءٍ. بعتُ مصاغي القليل وسلَّمته لخالك، واشترى بثمنه بعضَ الماعز والنعاج. اشترينا خيمتين: واحدة لي ولك، والأخرى لخالك.

ورجعنا إلى حيث دفنا أباك. كنتُ في بعض الأحيان أذهبُ بكَ وأنتَ لا تزال طفلاً رضيعاً إلى مكّة. نعتمرُ ونمرُّ في طريقنا إلى سوق الليل نشتري منه ما ينقصنا، ثم نعودُ أدراجنا إلى البر. علّمك خالك القراءة والكتابة لأنّه درس في إحدى حلقات الحرم في صغره القرآن والحساب والقراءة. كان يكتبُ الحروف لك على الرمال، ويقول لك هذا حرف ألف، وهذا باء، وهذا تاء. كان يطلب منك إعادة كتابتها، فتكتبها مرّةً أخرى. يكتبُ لك كلماتٍ فتهجّئها وتكتبها وتقرؤها. لطالما أدهشتَ خالك وشيوخك ومعلميك في الحرم بسرعة تعلّمك. كنتُ سعيدةً بكما. لفت نظري مدى سرعة تعلُّمك القراءة والكتابة على يد خالك مانع. من أجل ذلك طلبت منه أن يحضر لك من مكّة نسخةً من القرآنِ لتقرأ منه. كنتُ أراك تتلو آياته آناء الليل وأطراف النهار. لقد عوّضني الله خيراً بك وبخالك. حينما أتقنتَ القراءةَ والكتابةَ والحسابَ، قال خالك: هكذا يكفي، انتهى دوري هنا، وهذا مبلغُ علمي البسيط. سيتعلّم هو الباقي فيما بعد في الكتاتيب مع معلّم، أو شيخ زاوية. عدنا إلى مكّة مرّة أخرى لندخلك إحدى حلقات العلم في الحرم، لكنَّ الغريب أنّكَ لم تتأقلم في العيش هناك في مكّة. مرّ عامٌ كنتَ فيه لا تطيقُ الناسَ والزحامَ. اكترينا داراً بعيدةً قليلاً عن الحرم حتّى لا تقعَ أعينُ سكّانُ الحيِّ وعمدته الظالم علينا، فيضايقونا مرّة أخرى. كنتَ تعودُ مع خالك باكياً طالباً منّا العودة بكَ إلى الصحراء، ومع ذلك لفتَّ نظرَ معلّمكَ في الحلقة بتميُّزك وسرعة تعلُّمك وبديهتك. أصابك الهزالُ، وقلَّ نومكَ، وزادَ بكاؤك. عُدنا بكَ إلى هناك بعد مُضي عامٍ، فاسترجعتَ صحتكَ وتوازنكَ وعافيتكَ. كنتَ تحبُّ البرَّ الفسيحَ، ولا أعلمُ سرَّ هذا الحبِّ حتّى الآن.»

صحوتُ من غفوتي على ظهر الحمارة. كان نور الشمس يسطع في عيني. انتبهتُ إلى أحد الرجال يقول مؤشراً بسبابته إلى عمق الصحراء: "القطار!".

نظرتُ إلى حيث كان يشير، وسمعتُ صوته الرتيب: تف... تف... تف... تف... والدخان الأسود يتصاعد منه. أدركتُ أنَّنا على مشارف المدينة. لم ندخلها من جهة الجنوب، بل اتجهنا غرباً حتى وصلنا بئر درويش، ثم دخلناها من جهة الشمال حتّى نوهم مَن يرانا أنَّنا قادمون من الشمال، ولأنَّ السير في تلك المناطق كان أكثر أمناً وسلاماً. سرنا طوال الظهيرة، ومع حلول المساء دخلنا إلى مدينة رسول الله من بوابتها الشماليَّة.

٩

حوشُ الخازندار – المدينة المنوَّرة

ذهبوا بنا إلى مكانٍ يُسمَّى حوش الخاندار. أدخلونا بيتاً واسعاً داخل حوشٍ مربعِ الشكلِ، ذي جدران عالية زُرعت بجانبها شجراتُ نخلٍ باسقة ممتلئة بعراجين التمر الأصفر اللون. وفي طرفه الشرقي، رأينا خمسَ حجراتٍ مطليّات بالجيرِ الأبيض، ولها أبوابٌ خشبيَّةٌ مطعَّمةٌ بالحديد، ومن الأعلى كانت هناك نوافذُ حسنةُ المنظرِ. هناك وجدنا ثلاثَ جوارٍ حبشياتٍ مسنّات، وثلاثةَ عبيدٍ كانوا أصغرَ سنّاً منهنَّ. استقبلونا بوجوهٍ ساخطة. فصلوا الرجالَ عن النساء. أدخلوا النساءَ في الحجراتِ المغلقة التي تقعُ على الشمال، ثمَّ أغلقوا البابَ عليهنَّ. أخذونا – نحن الفتيان – إلى رجلٍ كثِّ اللحيةِ، أمامه كرسيٌّ خشبيٌّ كبيرٌ موضوعٌ في منتصفِ حجرةٍ واسعة. كان الرجل يمسك بيده مقصّاً حديديّاً علاه الصدأ. بدأ يحلقُ لنا شعورنا التي طالت وامتلأت بالقملِ. كان يعملُ صامتاً زامّاً شفتيه. أعطى لرجلٍ أسود آخر مقصّاً للأظفار. قصَّ لنا أظفارَ أيدينا وأقدامنا متأففاً حانقاً من صيحاتنا، فقد كان

في بعض الأحيان يقصُّ الظفرَ مع اللَّحم! بعدَ الحلاقة أدخلونا إلى حمَّام كبيرٍ فيه سطول حديديَّة كبيرةٍ ممتلئة بالماء، وبجانبها قوارير ممتلئة فاحتْ منها رائحةُ زيت سدرٍ نفَّاذٍ طيِّب الرائحة. طلبوا منا أن نستحمَ جيداً. نزعنا ملابسنا ونحن فرحون. لمْ يمس الماء أجسادنا المرهقة منذ أسابيع طويلة. استحممنا من الماء المخلوط بخلاصة ورق السدر. شعرنا بالتعب ينسلخ من أجسادنا كأنَّه ثوبٌ بالٍ وقديمٌ. انتزعونا من نعيم الحمَّام انتزاعاً. قالوا لنا: هذا يكفي، فالماءُ شحيحٌ. لو خيَّرونا بين الحمَّام وبين نِعَم الدنيا، لاخترناه بلا تردد. بعد الحمَّام أدخلونا حجرةً أخرى مفروشة بسجاجيد حمراء اللون عليها نقوش تمثِّل أزهاراً ووروداً متداخلة. طلبوا منا الجلوس، فجلسنا على طنافس مريحة بجانبها تكايا محشوَّة بالقطن. بعد قليل أدخلوا علينا طعاماً مكوَّناً من أرزٍ أبيض عليه قطعُ لحمٍ كبيرة. انقضضنا على صحون الأرز مثل نسورٍ رأتْ غزالاً ميِّتاً ملقىً في صحراء مكشوفة. التهمنا كلَّ ما في الصحاف ولمْ نترك شيئاً. لبثنا بعد الأكل جالسين في أماكننا وقد أصابتنا التُّخمة. منذُ مدة طويلة لم نذقْ فيها طعاماً دسماً مثل هذا. طلبوا منَّا أنْ نغسلَ أيدينا خارج الحجرة من حوض ممتلئ بالماء. أدخلونا حجرةً ذات سقفٍ عالٍ عليها أسرَّةٌ فوقها فرشٌ مريحةٌ زكيَّةُ الرائحة. خلدنا إلى النومَ كأنَّنا في نعيمِ الجنان. نسينا كلَّ ما مرّ بنا من مصاعبَ وأهوالٍ. بدت لنا تلكَ المصاعب كأنَّها مجرَّد حلم مزعجٍ. لبثنا سبعة أيام في هذا النعيم الذي لم نفهم سببه حتَّى الآنَ. تغيَّرتَ أشكالنا بتبدُّل أحوالنا، وعاد ماء الحياة إلى وجوهنا وأجسادنا. كانوا يدجِّنوننا

كما تُدجّن البهائم. لم يسمحوا لنا بالخروج من الحوش على الإطلاق. هدّدونا بأنّنا سنتعرّضُ للموتِ لو خرجنا. في بداية اليوم الثامن من وجودنا في حوش الخازندار، أيقظونا من نومنا ذات فجرٍ. سمعنا صوتَ مؤذنِ المسجدِ النبويّ يصدحُ بالأذان معلناً بدءَ صبحٍ يومٍ جديد. ساقونا إلى الحوش الواسع. صلّينا الفجر جماعةً في الحَوش. كنتُ إماماً للعبيدِ وبعضِ رجال لا أعرفهم في ذلك الفجر. قرأتُ ما تيسّر من قصار السور بصوتٍ شجيٍّ. بعد التسليمتين، اقتربَ منّي رجلٌ أملسُ الوجه، كبيرُ الأنفِ، لا أعرفه ولم يسبقْ لي رؤيته من قبل، فقال لي باسماً: "هل تحفظُ شيئاً مِن القرآنِ؟".

أجبته مرتاباً: "نعم!".

– وهل تجيدُ القراءةَ والكتابةَ؟

– نعم!

لمحتُ وجهه يتهلل بالبِشرِ، فتركني ومضى في حال سبيله. بعد انقضاء الصلاة، وفي ضوء الصباح الشحيح، رأيتُ متصرِّفَ القافلة واقفاً مثل تمثالٍ من صخرٍ يرقُب الوجوهَ والمكانَ بعينٍ كعينِ الصقر. كان لا يزال على العهد به: رجلاً فظّاً غليظَ القلب، كريهَ المنظرِ. أقسمتُ بيني وبين نفسي لو شاءت الظروفُ، ووقع هذا الوغد بين يديَّ في يوم ما، لأذبحنَّهُ ذبحَ النعاجِ، ولنْ تأخذني فيه رأفةٌ أو شفقةٌ. كان يقفُ إلى جانبه رجلٌ يبدو مثلَ شكله ورسمه. نادى كلَّ واحدٍ منهم على "عبيده". ذهبَ كلُّ واحد منّا إلى سيده. يبدو أنَّ النعيم قد انتهى. كان معي من تلك الرحلة البغيضة أربعة فتيان كنتُ خامسهم،

في بداية الصبا وفي مثل سنّي. أخذنا "سيِّدُنا" خارج الحوش، وهناك وجدنا البقيَّة من رجاله واقفين مثل الشياطين بوجوههم الكالحة التي بقيت كما هي بلا أدنى تغيير.

صاح فيهم "سيِّدُنا" وقال لهم: "هيَّا! اذهبوا بهم إلى حوشِ العبيدِ".

١٠

حوشُ العبيدِ – المدينة المنوَّرة

وصلنا إلى حوش العبيد والصبحُ قد تنفَّس. طلعت الشمسُ فأضاءت المكانَ بنورها الباهت. تحت حراسة أفراد القافلة، ذهبنا إليه مشياً على الأقدام لأنَّه كان قريباً من حوش الخازندار. كان حوشاً أجمل وأوسع من حوش الخازندار الذي أدخلونا فيه قبل أسبوع. تتوسَّطه دكَّةٌ عاليةٌ مربعةُ الشكلِ، ذات ست درجات للصعود. أجلسونا تحت ظلِّ الجدران. أدركتُ الآنَ أنَّ سببَ الاهتمام والرعاية لنا في حوش الخازندار هو لإزالة وعثاء السفر منَّا وإعادة هيئاتنا إلى سابق عهدها. أكَّلونا، وشرَّبُونا، وسمَّنونا، وغيَّرُوا ملابسنا لكي نُباعَ بسعرٍ مجزٍ. فمَن سيشتري عبداً، أو جاريةً، سيئَ المنظرِ كالحَ الهيئةِ؟

لبثنَا تحت ظلِّ جدران الحوش الذي بدأ يتقاصر. نرقبُ بفضولٍ ما سيحدثُ لنا.

مع الضحى فُتحت بوابة الحوش. دخلتْ منه عربات يجرُّها أحصنةٌ، ومن تلك العربات خرجَ رجالٌ يبدو عليهم أنَّهم من عِليَةِ القوم. وجوههم تنضحُ بالصِّحةِ والنضارةِ. كانت ملابسهم نظيفةً

ومرتبةٌ. لحاهم بيضاء وسوداء ولكنّها مشذّبةٌ. جاء معهم عبيدهم الذين بدوا بالمقارنة معنا كالأمراء، بحسن هندامهم وحركاتهم وأسلوب خدمتهم أسيادهم. بعض هؤلاء السادة كانوا يرتدون الطربوش العصملي الأحمر اللون، وفي أيدي بعضهم عصيٌّ مذهبةُ الأطرافِ. جلسوا على كراسيَّ خشبيةٍ أسفل عريشة ذات تخاريم ينفذُ منها ضوءُ الشمس. كانت تُشرفُ على الساحة والدّكة التي تقعُ منتصفها. مُدَّت أسفل أقدامهم الفرش. قدَّموا إلى بعضهم التبغَ والسجائرَ، وعلى الطاولاتِ كانت توجد أطباقٌ بعضُها فيه فواكه منوعة، وبعضها ممتلئة بالتمر والرطب. لبثوا يتحدَّثون مع بعضهم بعضاً زمناً لا بأس به حتّى حانت اللحظة. تقدَّم رجلٌ وارتقى الدّكة التي تتوسط الحوش. بدأ يتكلّم فاتحاً مزاد بيع العبيد. كانوا يشيرون إلى الفرد منّا فيتقدم صاعداً الدّكة. يبدأ الدلال في استعراض مميّزات العبد المعروض أمام السادة. يُطلبُ من العبد أن يدور حول نفسه. يقول الرجل الدلّال بصوتٍ جهوريٍّ مفتتحاً سوق النخاسة: "انظروا أيُّها السادة إلى هذا العبدِ! ألا يبدو فتيّاً، مكتملَ الجسدِ، مفتولَ العضلاتِ؟ انظروا إليه، لا يوجد فيه عرجٌ، ولا عورٌ، مكتملُ الحواسِّ، عفيُّ الجسدِ".

يطلبُ من العبدِ أن يفتح فمه. يقتربُ الدلال منه ناظراً إلى فم العبد المفتوح، فيصيح: "حتّى أسنانه مكتملة، سليمة، ولا يوجد فيها نخرٌ".

يصمت الدلّال منتظراً السادة، وينتظر المشتري منهم. يرفع أحد السادة يده فيقول: "أنَا راغبٌ في امتلاكهِ وشرائهِ".

ينزل العبدُ من فوق الدّكة، ثمَّ يتقدَّم نحو سيِّدِه الجديد، ويلبث واقفاً عنده منتظراً دفع ثمنه ليغادر معه...

كنتُ الثاني في العرض. أشار إلي الدلّال لكي أقتربَ. تردَّدتُ عن التقُّدمِ نحو الدّكة. لو رضختُ لهم، لأصبحتُ عبداً بلا أدنى تردُّد. فكَّرتُ أنْ أصيحَ في الجميعِ بأعلى صوتي، وأقولُ لهم إنَّني لستُ عبداً، فأنَا رجلٌ حُرٌّ اختُطفتَ من البادية لأُباع كما يُباع العبد. أمِّي التي أورثتني ملامحها كانت من بلاد النوبة، ولكنَّ والدي عربيٌّ قُحٌّ. كانت مُلك يمينه، أعتقها، ثمَّ تزوَّجها، وأنجبني قبل أن ينتقل إلى رحمة الله بمرض الجدري. التفتُّ إلى سيِّدي القديم، وحالما وقع نظري عليه، وضع يده على خنجره وعيناه تقدحان شرراً كأنَّه قرأ أفكاري. لقد وصلتني رسالته: إنْ تفوَّهتَ بكلمةٍ واحدةٍ، وأفسدت عليَّ أمري، قتلتكَ بهذا الخنجر. تقدَّمتُ إلى الدّكة حزيناً واجفَ القلبِ مكسورَ الخاطرِ. صعدتُ الدرجات متباطئاً، فحثَّني الدلّال على الإسراع قائلاً لي: إنَّ السّادةَ في عجلةٍ من أمرهم. فليذهب إلى الجحيم هؤلاء الأسياد! فكَّرتُ أنْ أصرخَ في الجمع سارداً قصتي، ولكنَّني فكَّرتُ في عواقب هذه الخطوة؛ لربما فقدتُ حياتي بسببها، فأنَا واقعٌ تحتَ نير سيِّدٍ لا يرحمُ، قاسي القلبِ، مجرمٍ، قاتلٍ، مغتصبِ أطفالٍ. فأيُّ مصيرٍ سينتظرني معه؟

ربما تحسَّنتْ ظروفي بعيداً عنه، واشتريتُ ثمنَ حريتي، أو لذتُ بالفرارِ إذا سنحت لي الفرصة. بسببِ هذه الخواطرِ، هدأت نفسي. كنتُ أستمع للدلّال يسردُ مميزاتي العظيمة. وصفني الدلّال بالعبدِ القوي الفتي الجسد الذي تبدو عليه مخايلُ الفطنةِ والذكاءِ، وهو فوق

ذلك يقرأُ ويكتبُ. ولا أعلمُ كيفَ عرف أنَّني أجيدُ القراءةَ والكتابةَ رغم أنّني لمْ أخبرْ أحداً في القافلة بهذا الأمر. وعزوتُ ذلك إلى أنَّه قال ذلك هكذا خبط عشواء، ليزيدَ قيمتي وهو لا يعرفُ هل أجيدُ القراءة والكتابة. تذكَّرتُ فجأةً ذلكَ الرجلَ الذي صلَّى معنا الفجر واستفسر منِّي بعد انقضاء الصلاة هل أجيدُ القراءةَ والكتابةَ. ربما أخبر الدلال بهذا. لعنته في سرّي. استمرَّ سارداً أوصافي ومميزاتي، فقال عني إنني مكتملُ الأعضاءِ، حسنُ المنظرِ، وأنفعُ للخدمةِ الشّاقة. قطعَ سردَ أوصافه عني رجلٌ من الرجال الذين يجلسون تحت العريش قائلاً بصوت عميق هادئ النبرات: "هذَا يكفي؛ أنَا سأشتريه!".

بلمحةِ خاطفةٍ، نظرتُ إلى سيِّدي الجديد، فوجدته يبدو كأنَّه أسنُّ القومِ بلحيته البيضاء ولباسه الأبيض وعمامته الخضراء اللون وعصاه السوداء المذهبة. حينما التقتْ نظراتنا أشار إلي مبتسماً بالاقتراب. نزلتُ من فوق الدّكة ماشياً نحوه، منكسَ الرأسِ، أنفاسي مضغوطةٌ متلاحقةٌ، مستشعراً المصير الأسود الذي أوقعتني الأقدار فيه بلا حول منِّي ولا قوَّة، رغم البشائر التي رأيتها على هيئته، فهو يبدُو لي رجلاً طيِّبَ القلبِ، سمحَ الاخلاقِ، وربما لو حكيتُ له حكايتي، فسيعتقني لوجه الله تعالى، وأعودُ إلى أمِّي المسكينة. حالما وصلتُ عندَه، نظر إلي من الأعلى إلى الأسفل متفقداً إيَّاي. هزّ رأسه مستحسناً هيئتي وصمتي. أشار إلى أحدِ العبيد المرافقين له، فأخرجَ الأخير من صندوق صغير معه كيساً أحمرَ اللون استخرج منه دنانير ذهبيَّة، فدفع ثمني لسيِّدي القديم الذي كانت عيناه تلمعان وطيف ابتسامة بدا يلوح على وجهه الكئيب. حالما استلم مَن كان يعتقدُ

أنَّه يملكني مبلغَ بيعي، قام سيِّدي الجديد من مكانه مغادراً المكان. نادى عليه الدلّال قائلاً له: "سيكونُ لكَ نعمَ العبد الأمين، يا شيخ عبد الرحمن أفندي".

ركبتُ على المقعد بجانب السائس، وانطلقنا إلى بيت مالكي الجديد.

١١

زقاقُ الطيّارِ – المدينة المنوّرة

وصلنا البيتَ بعد أن سرنا في شوارع مكتظّة بالناس، ويكثر على جانبي الشوارع الواسعة حوانيتُ تبيعُ كلَّ شيءٍ، من أقمشةٍ وجلديات وبُسطٍ وسجاجيدَ وفواكهَ وصناديقَ خشبيةٍ... فنادقُ وخاناتٌ كبيرةٌ وصغيرةٌ. مررنا بالكثير من المكتبات والأربطة والأسبلة والأزقة والأحواش وأنا لا أزال مستغرقاً في تأمُّلِ المكان فيما حولي. بدتْ لي المدينة المنوّرة عامرةً بالنَّاسِ ضاجَّةً بالحركةِ صاخبةً. تلمحُ في وجوه أهلها وزوّارها كلَّ أنماط البشر القادمين من مختلف المشارب والبلدان. تسمعُ أناساً يتحدَّثون بلغاتٍ أخرى وهم يسيرون على عجلٍ وقد اكتستْ ملامحهم بالسكينة والوقارِ، فانعكس هذا على وجوههم التي كانت تعلوها البسماتُ الراضيةُ. كانت بيوتها حسنةَ البناءِ، بعضها ذات أدوار متعدِّدة تعلوها الرواشينُ المخرَّمةُ بلونها البنيّ المحروق. مررنا بمحطّة القطارِ الواسعة ذات الشكل المستطيل. كانت محاطةً بسور مبنيٍّ من الحجر الأسود اللون، وتشتمل على مجموعة من المباني الحسنة الشكل. لمحتُ لوحة

ضخمة مكتوب عليها "الاستسيون". لمحتُ القطارَ الواقفَ. كان أكبر حجماً في واقع الأمر عندما لمحته من بعيد، مخترقاً الصحراء، متَّجهاً صوب المدينة المنوَّرة. سرنا مسافةً قصيرةً نوعاً من المحطَّة. التفتَ السائسُ إلى السيِّد الذي كان جالساً داخل العربة ممسكاً مسبحته ذات فصوص الكهرمان، وقال له: "هل سنذهبُ إلى مكتبةِ عارف حكمت، يا سيِّدي؟".

أجابه السيِّد: "لا؛ لقد فاتَ الوقتُ. اذهب إلى البيت الآن، وفي المساء، سنذهبُ إلى هناك، بإذن الله".

بعدَ أن تهامس العبدُ المرافقُ للسيِّدِ، الذي كان جالساً على مقعدٍ خفيضٍ صغيرِ الحجم بجانب مقعدِ السيِّد، صاح مخاطباً السائسَ: "اذهبْ إلى البيتِ الذي في زقاقِ الطيَّارِ".

سرنا مسافة أخرى شغلتُ جلَّها في تأمُّل ما حولي. هذه الأحياء والدروب والأزقَّة تذكِّرني بحاراتِ مكَّة وأزقتها وشوارعها التي رفضتُ العيشَ فيها طفلاً، وفضَّلتُ العيشَ في البر الفسيح. ها هي الآن ستصبح بيتي وموطني! بعد وقتٍ لا بأس به توقفنا أمامَ بوابةٍ حديديَّةٍ كبيرةٍ سرعان ما فُتح مصراعاها، فدخلت العربة تسيرُ على أرضيَّةٍ مرصوفةٍ بحجارةٍ سوداء شبه ملساء. وقفنا أمام بيتٍ مكوَّنٍ من دورين، وعلى نوافذه رواشين مشغولة بالخشب البُني اللون. إذن، هذا هو بيتي الجديد. ترجَّلَ السيِّد من العربةِ، فتبعه مرافقوه. كنتُ أسيرُ وراءهم. وصلنا إلى بابِ البيت الكبير. كان فخماً، تصميمه على شكل قوسٍ، تعلوه نقوشٌ ملوَّنةٌ باللونِ الأزرق والأخضر. فتحتْ لنا البابَ جاريةٌ حبشيَّةٌ حسنةُ الوجهِ، وتبدو صغيرةً في السنِّ. دلفنا

إلى الداخل، فهالني اتِّساع البيت وحسن أثاثه وترتيبه وذوقه. على يمين الداخل، كانت هناك مكتبة ذات أدراج خشبيَّة مصقولة ممتلئة بالكتب والمخطوطات، وأمامها طاولةٌ عريضةٌ عليها غطاءٌ من قماشٍ أبيض اللون، وحولها أربعةُ كراسيّ. وفي الطرف القصيّ، كان هناك سلّمٌ خشبيٌّ قصيرٌ يبدو أنَّه خُصص للوصول إلى الكتب في الرفوف العُليا التي لا يستطيع المرءُ الوصول إليها بقامته. جلس السيِّد على مقعدٍ وثيرٍ مكسوٍّ بالجلد، ولوَّحَ لمرافقيه بالانصراف. حينما هممتُ بمرافقتهم، رفع لي السيِّد كفَّ يدِه اليمنى طالباً منِّي المكوثَ. لبثتُ في مكاني واقفاً، فأشارَ علي بالاقترابِ. دنوتُ منه ولا أعرفُ لماذا في تلك اللحظةِ بدأتُ البكاء. تعالى صوتي بالنحيب والعويل ماسحاً دموعي بظاهرِ يدي. تركني السيِّد في حالتي ولم يتفوَّه بكلمةٍ واحدة. في آخر الأمر، كففتُ عن البكاء. رفعتُ وجهي نحوَه وقلتُ له: "أنَا لستُ عبداً. أنَا رجلٌ حُرٌّ. أمِّي جاريةٌ من بلاد النوبة أعتقها والدي العربيُّ الأصل وتزوَّجها. وفي وقتٍ لاحقٍ، أعتق أخاها خالي مانع. ربما رأى اللصوص لون بشرتي، فاعتقدوا أنني عبدٌ فخطفوني من...".

ولدهشتي، قال لي السيِّد بهدوءٍ مقاطعاً حديثي وبسمته ترتسمُ على محيَّاه: "أعرفُ ذلكَ، يا بُنيّ. أنتَ لستَ عبداً".

انتبهتُ إلى كلامِه الغريب، فوجدتُ نفسي أصرخُ في وجهِهِ: "إذا كنتُ لستُ عبداً، فلماذا اشتريتني؟".

– هدِّئ روعك، يا بُني. سأجيبك عن سؤالك. لقد اشتريتُكَ لأمنحكَ حريتكَ.

توقفتُ عن الكلام، وأبى الكلام الخروج من صدري. وأخذتُ أتأمَّل هذا الرجل الغريب الذي يقولُ إنَّه اشتراني ليمنحني حرِّيتي، فلماذا ابتاعني كعبدٍ من حوشِ العبيدِ منذُ ساعاتٍ؟

سألني بعد لحظةٍ توقُّفٍ وهو ينظرُ إلى مكتبتِه الممتلئة بالكتب: "اصدقني القولَ، يا بُني، هل تجيدُ فعلاً القراءةَ والكتابةَ؟".

قلتُ له مستغرباً سؤاله: "نعم".

– وأين تعلَّمتَ القراءةَ والكتابةَ؟

– في إحدى حلقاتِ الحرمِ المكيِّ...

تذكَّرتُ خالي مانع، معلِّميَ الحقيقي، فشعرتُ بغصَّةٍ تمسكُ حنجرتي.

هزَّ السيِّد رأسَهُ استحساناً، ثمَّ صفَّقَ بيديه، فدخلت الجاريةُ الحبشيَّةُ التي فتحتْ لنا البابَ عند دخولنا. قال لها شيئاً بصوتٍ خافتٍ، ثمَّ عهد لها بأمري، وطلب منها أن توفرَ كلَّ أسبابِ الراحةِ لي. نظَرَ نحوي وقال قبل أنْ ينصرفَ: "حديثنا لم ينتهِ بعد، سنكملُه في وقتٍ لاحقٍ بعد أنْ تأخذَ قسطاً من الراحة".

قالَ ذلك، ثمَّ صعد سُلَّماً خشبيَّ الدرجات إلى الدور الأعلى من البيت.

١٢

بيتُ الوجيه: عبد الرحمن المدني – زقاق الطيّار – ١

اعتنتْ بي الجاريةُ الحبشيَّةُ اعتناءً مبالغاً فيه، ولا يليق برقيقٍ جُلب من سوق النخاسة ليكون عبداً. قالت لي إنَّ اسمها مرجانة. وُلدت هنا في بيت السيِّد عبد الرحمن المدني. ماتت أمُّها قبل سنوات قليلة، التي كانت بدورها من أقدم جواري الوجيه. قالت لي إنه لم يعاملها أبداً كجاريةٍ، بل كابنةٍ له. كانت ذات روح مرحة وتكبرني بسنواتٍ قليلة. أدخلتني الحمّامَ الموجود في أحد أركان حوش البيت الواسع، الذي كان مخصَّصاً للضيوف ومن يخدمون في البيت. أحضرتْ إلي ثياباً جديدةً. وخصَّصتْ لي حجرةً صغيرةَ الحجم ذات نافذة وحيدةٍ تشرفُ على الحوش، وداخلها سريرٌ حديديٌّ مُدَّت عليه فُرشٌ ووسائد من قطن. غابت قليلاً ثمَّ جاءت ومعها فطورٌ مكوَّنٌ من بيضٍ مسلوقٍ، وقطعة رغيفٍ، وطبقٍ صغيرٍ فيه عنبٌ أخضرُ. أمرتني بتناول فطوري وأن أخلدَ إلى الراحة، فربما رافقت السيِّد عبد الرحمن المدني بعد صلاة العصر إلى مكتبة عارف حكمت بالقرب من الحرم النبوي الشريف. تناولتُ الإفطار، فقد كنتُ جائعاً،

فآخر وجبة تناولتها كانت عشاءً فاخراً في حوش الخازندار أيّام النعيم أو التسمين. استلقيتُ على الفراش الذي كان وثيراً بالنسبة إلي بعد الأيام القاسية التي مررتُ بها. شعرتُ بنعم الله تترى عليَّ، فأصبح لي حجرةٌ تخصُّني أستطيعُ أنْ ألوذَ فيها بنفسي. رحلتْ بي الأفكارُ إلى أمِّي، فشعرتُ بالاشتياق لها، وأشفقتُ عليها أنْ يصيبها اليأسُ من ألا تقع عيناها عليَّ مرة أخرى. فكَّرتُ في خالي مانع لعلَّه يستطيع العودة إليها فيوليها عنايته، ويبثُّ في نفسها الأمل أنَّني لم أمتْ، وأنني عائدٌ إليها بإذن الله. بمثل هذه الهواجس، دخلتُ في النوم. صحوتُ على طرقٍ على باب حجرتي. فتحتُ البابَ فوجدتُ مرجانة واقفةً بيدها صحنٌ كبيرٌ رُصّت داخله صحونٌ أصغرُ حجماً فيها أرز أبيض مع قطع من اللَّحم وبعض الخضراوات والفواكه. وضعت الجارية مرجانة الطبق، وطلبت منّي أن أتناول غدائي استعداداً لمرافقة السيِّد إلى المسجد النبوي لأداء صلاة العصر، ثمَّ الذهاب إلى مكتبة عارف حكمت كما أمر. تناولتُ غدائي المتأخِّر قليلاً، وبعد أنْ غسلتُ يديَّ جاءت مرجانة بملابس نظيفة طلبت منِّي ارتداءها لمرافقة السيِّد بعد قليل. ارتديتُ تلك الملابس، فبدوت لنفسي شخصاً آخرَ مسَّته سرَّاءُ بعدَ ضرَّاءٍ، ولقيَ السعادةَ بعد مخاضٍ عسيرٍ من المصاعب والأهوال. وتساءلتُ بيني وبين نفسي: ألاَ يشتري السادةُ العبيدَ ليخدموا أسيادهم في المنازل؟ لماذا يريد سيِّدي الجديد أنْ أرافقه إلى المسجدِ النبويِّ الشريف ثمَّ إلى هذا المكان الذي يُقال له مكتبة عارف حكمت؟

حرتُ ماذا أفعل بعد أنْ ارتديتُ الملابسَ الجديدة: هل أبقى في حجرتي منتظراً الأوامر أو أخرج إلى باحةِ البيت وأمكثُ هناك منتظراً

ما يُطلب منّي؟ لم تطلْ حيرتي، إذ سرعان ما جاءت مرجانة طالبةً منّي الاستعداد للخروج بمرافقة السيِّد. نظرتْ إلي في ثيابي الجديدة، فابتسمتْ ابتسامةَ خجلٍ غطّتْ بها فاها. أردتُ أنْ أسألها عن سرِّ ابتسامتها، ولكنّني سكتُّ، فأنا لا أزال جديداً على المكان، ولا يجوز لي طرح الكثير من الأسئلة، فلم يحن الوقت المناسب لطرحها. لديَّ أسئلةٌ كثيرةٌ أريدُ أنْ أحصلَ على إجاباتٍ لها. سأدعُ ذلك للوقت المناسب، هكذا قلتُ لنفسي. أشارتْ إليَّ لكي أتبعها، فتبعتُها حتَّى الصالة الواسعة في البيت. وهناك وجدتُ سيِّدي الجديد يلفُّ عمامته حول رأسه، ويُحسِّنُ وضع هندامه. رآني، ثمَّ ابتسمَ في وجهي. مدَّ إلي بخرجٍ كبيرٍ، قال لي إنَّ فيه أوراقاً فارغةً وجاهزةً للكتابة عليها، وفيه أقلاماً ودواةَ حبرٍ وبعض المخطوطاتِ والكتبِ. طلب منّي حملها والاحتفاظ بها. حالما خرجنا من البيت تصاعد أذان صلاة العصر بصوتٍ نديٍّ يتسللُ إلى الروح بخفَّةٍ من المسجدِ النبويِّ القريب قليلاً من البيت. ركبتُ بمرافقة سيِّدي الجديد مع السائس، وانطلقنا إلى المسجدِ النبويِّ وقلبي يدقُّ من الفرح، فهذه ستكون أوَّلَ صلاةٍ لي في مسجدِ رسولِ الله، في مدينته المنوَّرة والمباركة.

١٣

مكتبةُ عارف حكمت – المدينة المنوّرة

تخفّفتُ من أحمالي ومتاعبي وخيباتي حال دخولي المسجدَ النبويَّ، مسجد رسول الله. شعرتُ بآلامي وإخفاقاتي والصعوبات الجمَّة التي مررتُ بها تسقطُ منّي على عتبةِ الدخول. لمحتُ القبة الخضراء، ومآذنه وأبوابه وأعمدته ومقرنصاته والآيات القرآنيَّة المكتوبة بخط النسخ على جدرانه، فشعرتُ بشيءٍ كالوجدِ، كالفرحِ. شيء ما هنا جعلني خفيفاً مثل طائر. تماماً مثل تلك المشاعر التي كنتُ أشعر بها كلَّما أدَّيتُ إحدى الصلوات في بيت الله الحرام برفقة خالي مانع ووالدتي كلَّما سنحت لنا ظروفنا الذهاب إلى مكّة. لكنَّني هناك كنتُ حُرّاً، أمَّا هنا، فإنَّني أصلّي وأنَا عبدٌ رقيقٌ شُريت من سوق النخَّاسة، حتَّى لو قال سيِّدي الجديد إنَّني لستُ عبداً، فماذا يُسمَّى وضعي الذي أنا فيه؟ لن تخدعني الكلمات المعسولة ولا تطييب الخواطر عن حالي الذي أعيشه الآن.

صلَّيتُ أوَّل صلاة لي في الروضة الشريفة بالمسجد النبوي كأنَّني أُصلّي لأوَّل مرّة في حياتي. جلستُ خلف سيِّدي الذي أدَّى السُّنَّة

الراتبة، ولبث منتظراً إقامة الصلاة، وطفقتُ أتأمَّله: مَن هذَا الرجلُ؟ وماذَا يريدُ منِّي؟ كنتُ جالساً على بُعد أمتار عنه. ما الذي يمنعني من الخروج الآن من المسجد ثمَّ أُطلق ساقيَّ للريح عائداً إلى أمِّي المسكينة في بوادي مكَّة لتقرَّ عينُها بوجودي بجانبها وتقضي ما تبقَّى لها من سنين عمرها آمنةً مطمئنةً تحت رعايتي لها في شيخوختها. سرحتُ ببصري ناظراً إلى المصلِّين، فوجدتهم بين راكعٍ وساجدٍ وقارئ لـالقرآن ولاهجٍ بالأدعية والذِكر. عدتُ أتأمَّل سيِّدي، فوجدته يلعبُ بحبَّات مسبحته متمتماً بالاستغفار والتهليل والتسبيح. أُقيمت الصلاة، فنهض الجميعُ خلفَ الإمام بالقرب من الروضة الشريفة. حالما فرغنا من الصلاة نهضَ سيِّدي ماشياً فتبعته. خرجنا من ناحية باب جبريل، ثمَّ اتَّجهنا سيراً على الأقدام نحو مبنى مربع الشكل تعلوه قبَّةٌ أنيقةُ الشكل فيها فتحاتٌ صغيرةٌ، وتبدو نوافذه الكبيرة مغطاةً بالزجاج الذي يحيط به حديدٌ مشغولٌ بطريقةٍ فريدةٍ. لمحتُ على الباب لوحةً مكتوب عليها بخط الثُلث: مكتبة عارف حكمت. وجدنا البابَ مفتوحاً، فدخلنا. كانت المكتبةُ من الداخل مكتظَّةً بالكتبِ والمخطوطاتِ من الأسفل حتَّى تلامس السقف العالي. كانت جدرانها الرماديَّة اللون تزيِّنها عقودٌ صغيرةٌ مقوَّسةُ الشكلِ، وداخل العقود الدائريَّة كانت نوافذها الكبيرة تنفِّذ ضوء الشمس إلى الداخل فتعطي إضاءةً كافيةً للمكان. وتحت بعض الرفوف أدراجٌ كبيرةٌ خشبيَّةٌ مغلقةٌ ذات مقابض ذهبيَّة اللون. استقبلنا رجلٌ يلبسُ طربوشاً كان حينها يقفُ على درجات سُلَّم خشبيٍّ ويرصُّ مجموعةً من الكتب في أحد الأدراج العلويّة. رحَّب بالشيخ عبد الرحمن

ودعاه بالأفندي. سحب له كرسيّاً وأجلسه عليه. رمقني بنظرةٍ عابرةٍ، ثمَّ عاد إلى الاهتمام بسيِّدي. قدَّم إليه قدحاً من الماء، فتناوله السيِّد وشربه بمهلٍ، وأعاد إليه القدح شاكراً، وسأله: "هل من جديد لديك من الكتبِ، يا إبراهيم أفندي؟".

أجابه بمرحٍ قائلاً: "ستجدُ لدينا كلَّ جديد، يا شيخ عبد الرحمن، فقد وصلتنا عبرَ القطار الواصل من دمشق منذُ أيام قلائل نفائس من الكتب والمخطوطات. هل تحبُّ أنْ أطلعكَ عليها؟".

– نعم، وجزاك الله خيراً.

التفتَ نحوي سيِّدي وقال موجِّهاً حديثه إلي: "اذهب خارج المكتبة، ستجدُ السائسَ هناك بانتظاركَ. سيسلِّمكَ الخُرجَ الذي فيه الكتب والمخطوطات والأوراق والأقلام والأحبار. أحضرها وعُدْ إلى هنَا سريعاً".

امتثلتُ لأمرِه. خرجتُ من المكتبةِ فوجدتُ السائسَ بانتظاري. سلَّمني الخُرجَ الذي فيه المخطوطاتُ والكتبُ والأوراقُ، وعدتُ أدراجي إلى المكتبة. وجدتُ سيِّدي برفقة إبراهيم أفندي يتصفَّحان مخطوطاتٍ وكتباً موضوعة أمامهما على الطاولة وهما يتناقشان ويلقيان بعضَ الملاحظات على بعضِ الكتبِ والمخطوطاتِ. لمْ أشأْ أنْ أقطعَ حديثهما. وجدتُ أحد الكراسي الخشبيَّة فارغاً بجانب المدخل، فجلستُ عليه ممسكاً الخُرجَ بيدي. ورحتُ ببصري أتأمَّلُ المكتبةَ التي لمْ ترَ عيني مثلها في عددِ الكتبِ التي تشتمل عليها رفوفها. فرغم مساحتها الصغيرة، كانت مليئةً بالكتبِ والمخطوطاتِ. رفعتُ رأسي إلى الأعلى فلمحتُ القبَّةَ المجوَّفةَ

والمشغولةَ بالزخارف والآياتِ القرآنيَّةِ في أطرافها، ما أعطى المكان مساحةً ومهابةً إضافيَّةً. كانَ الهواءُ يأتِي مِن فتحات التهوية التي كانت على شكل نجمةٍ تعلُو الأقواس، ما يساعدُ على تجديد الهواء من الداخل ويشعركَ بالرَّاحةِ وأنك غير مخنوق. كان سيِّدي وإبراهيم أفندي يتجادلان حول الكتب والمخطوطات، وقد نسيا مثولي بالقرب منهما. بعد مضي وقتٍ طويلٍ من النقاش طلب منِّي سيِّدي أنْ أجلبَ الخُرجَ. اقتربتُ منه فمدَّ يدَه داخله وأخرج المخطوطات والكتب التي كانت داخله وسلَّمها لإبراهيم أفندي. أخذها منه ناظرُ المكتبة ثمَّ انطلق بها إلى أحد الرفوف، وهناك أعادها إلى أماكنها. طلب منِّي الوجيهُ أنْ أجمعَ الكتب والمخطوطات التي كانت على الطاولة ووضعها داخل الخُرجِ. نهضَ من مكانهِ مودِّعاً إبراهيم أفندي الذي قال له ضاحكاً: "استودعتك الله، يا شيخ عبد الرحمن أفندي. أرجو منك الاهتمام بالمخطوطات وإعادتها لي بعد فراغك منها. أنت تعرف أنَّه لا يُسمح أبداً بخروج أيِّ كتابٍ أو مخطوطةٍ من هنا. مَن أراد القراءةَ والاطِّلاعَ، فعليه القراءة هنا داخل المكتبة لكنَّك رجلٌ فاضلٌ لا يملكُ المرءُ إلّا أنْ يقولَ لكَ: سمعاً وطاعةً يا سيِّدي".

ضحك سيِّدي بملء فيه حالما سمع تلك الكلمات من إبراهيم أفندي، ووعده أنْ يعيدها في أقربِ وقتٍ - كما هي العادة - بعدَ أنْ يقرأها وينسخ منها ما يريد. ودَّعه إبراهيم أفندي عند باب المكتبة، ولوّح لنا بيدِه اليمنى حالما تحرّكت العربةُ عائدةً بنا إلى البيت في زقاقِ الطيَّارِ.

١٤

بيتُ الوجيهِ: عبد الرحمن المدنيّ - زقاقُ الطيّارِ - ٢

بعدَ صلاة العشاء التي أدّاها السيّد في المسجدِ النبويِّ استدعاني للمثولِ أمامه. وجدته جالساً في الصالة الواسعة يطالعُ في ضوءِ الفوانيسِ والشموعِ المخطوطاتِ التي أحضرناها من مكتبة عارف حكمت عصر اليوم. طلب منّي الجلوس، وهناك بدأ يذكرُ لي ما هو مطلوبٌ منّي في خدمته. قال لي: "لا أريدُ عبداً في بيتي ولا جاريةً، فكلُّ مَن في هذا المنزل هُم بمكانة أبنائي وأتعاملُ معهم بهذا المفهوم".

ملأ صدره بالهواءِ، ثمّ قال لي: "لقد دفعتُ فيكَ ذلك الثمن الباهظ من الجنيهات الذهبيّة لأنّني شعرتُ أنّكَ لستَ من العبيدِ عندما رأيتك لأوّل مرّة في دكّة حوش العبيدِ معروضاً للبيع. شعرتُ أنَّ وراءكَ حكايةً ما، فلا سيماء وجهك ولا هدوؤك يدلّان على أنّك عبدٌ!".

ثمّ وصفني بكلمةٍ هي أقرب إلى الصواب ولا أعرفُ كيف لم تخطر لي على بالٍ من قبل، فقد قال عنّي: "أنتَ ضحيةُ ظروفٍ ما صعبة".

أكمل حديثه الصاعق لي بقوله إنَّ كلَّ مَن هُو في سنّي الصغيرة معرَّضٌ لما حدث لي في مثلِ هذه الظروف التي عمَّت فيها الفوضى بسبب ضعف سلطة الدولة العثمانيَّة ووصفها من أعدائها في أوروبا بالرَّجلِ المريضِ.

بدأ جسدي يرتعشُ حالما سمعتُ هذه الكلمات منه، فكلُّ شيءٍ حتَّى الآن يبدُو عكسَ ما كنتُ أتوقَّعه. لم يرحمني، بل قال لي: "أنتَ يا بُني، من الآن فصاعداً، سأتعاملُ معك كموظفٍ وليسَ كعبدٍ، ووظيفتك يمكن اختصارها في نقلِ بعض المخطوطات وتلخيص صفحات من كتبٍ معيَّنة سأخبرك بعناوينها ومكان النقل منها قبل إعادتها إلى مكتبة عارف حكمت".

كنتُ صامتاً أنظرُ إليه وهو يحدِّثني كأنَّني أخوضُ تفاصيلَ حلم: "ستذهب وحدك إلى المكتبة في بعض الأوقات لإرجاع ولإحضار بعض الكتب والمخطوطات التي سأذكرُ لكَ عناوينها، وفوق هذا سيكونُ لكَ دخلٌ شهريٌّ نظيرَ خدمتك سنتَّفق بشأنه في وقتٍ لاحق، وتستطيع أن تتناولَ الوجبات الثلاث مجاناً، إضافةً إلى تخصيص حجرة لك، ويوم الجمعة ستكون فيه حُرّاً لأنَّه سيكون يومَ إجازتك الأسبوعيَّة، وباستطاعتك الذهاب إلى حيثُ تشاء".

شملنا الصمتُ.

لم أشعر بنفسي إلّا وأنا راكعٌ على قدميّ لاثماً يديه، فاشتعل غضباً وقال لي حانقاً: "إنَّ مَا تفعله لا يجوزُ أنْ يصدرَ من رجلٍ حُرٍّ".

وزاد: "أبوابُ البيتِ مفتوحةٌ أمامك في حالِ رغبتَ في المغادرةَ في أيِّ وقتٍ تشاء!".

كان ما قاله هذا الرجلُ الفاضلُ كثيراً عليَّ، شيئاً فوق احتمالي ويصعبُ عليَّ فهمه وتحليله في لحظاتٍ، بل كنتُ أحتاجُ إلى ساعاتِ تفكير طويلة أضعُ فيها النقاطَ على الحروفِ، وأفهم كلَّ ما ذكره لي منذ قليل. إذن – وفق كلامه – أنا لستُ عبداً، بل موظفٌ لدى رجلٍ من عِلية القومِ في مدينةِ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم.

سبحانك يا الله مَا أعظم نعمتك!

هل هذا ثمار دعواتِ أمِّي المسكينة التي كانت دائماً مَا تدعو لي بخيرِ الدعاء، وأن يبعد الله عنِّي شياطين الجنِّ والإنسِ؟ وجدتُ نفسي أقولُ له: "ساكونُ طوعَ بنانِكَ، وساظلُّ أحملُ في عنقي معروفَكَ طالما بقيتُ على قيدِ الحياة".

سألني عن حكايتي، فأخبرتُه بكلِّ تفاصيلها. كنتُ خلالَ حديثي أرقبُ وجهَه يطفحُ بالغضبِ والاشمئزازِ. بعد لحظاتٍ من حديثه العذب والدعاء لي بخير ابتسمَ ثمَّ قال لي بمرحٍ: "إذنْ، هيَّا إلى العملِ!".

سرنا نحو الطاولة التي تقع أسفل رفوف المكتبة الكبيرة. فتحَ أمامي بعض الصفحات، وأحضر إليّ دواةَ الحبرِ وأقلاماً، وطلب منِّي بدءَ الكتابة.

قضينا وقتاً لا بأسَ فيه، أقرأُ له بضعَ صفحاتٍ من كتابٍ أو مخطوطةٍ ما. يطلب منِّي نَسْخَ بعض الصفحات والاحتفاظ بها في حافظة ورق ذات جلد ناعم. امتدحَ قراءتي، وحُسنَ خطِّي، وقال لي إنَّني ساكون من أهمِّ الموظَّفين لديه وأكثرهم نفعاً، معترفاً لي بأنَّه قد استعان بموظَّفين قبلي طلب منهم أنْ يفعلوا ما نفعله الآن من عمل،

ولكنَّهم كانوا لا يستمرُّون كثيراً في مواجهة الكتب والمخطوطات، فهي تحتاجُ إلى صبرٍ وجَلَد. كانوا يجدونه عملاً مملاً، إذ يقضون ساعاتٍ طويلةٍ لمطالعة الكُتب ونقل بعض صفحاتها. أضاف: "لكنّني أجدُكَ مختلفاً قليلاً، وربما مثل هذا العمل يستهويك ويثير فضولك، ولن يخيب ظنّي فيك". شكرته مؤكّداً له صدقَ ظنّه وأنّني أجده عملاً مثيراً لا يخلو من فائدة. وقاومتُ رغبةً كبيرةً في الاستزادة عنه شخصيّاً، فقد بدَا لي في هذه اللحظات رجلاً غامضاً يثيرُ حوله الكثير من الأسئلة، لكنّه - بكلِّ تأكيدٍ - يطفحُ بالطيبةِ وحُسنِ السريرة. تردَّدتُ فلم أتفوّه بأيِّ كلمة. بعدَ ساعات قضيناها نكتبُ ونقرأ وننسخُ. طلب منّي التوقُّف والخلود إلى الراحة. أشار إلى المخطوطات التي أحضرناها من مكتبة عارف حكمت وقال لي: "غداً بحول الله تذهب إلى المكتبة بمفردك، وتسلِّم هذه الكتب والمخطوطات لإبراهيم أفندي، وتحضر هذه الكتب التي دوَّنتها لكَ في هذه الورقة".

مدَّ إلي ورقةً فيها أسماءُ عناوين بعض الكتب والمخطوطات. تناولتُها منه، وألقيتُ عليها نظرةً عُجلى. طويتها ثمَّ وضعتها في جيبي.

نادى على الجارية مرجانة، فجاءت مسرعةً في خطوتها. طلب منها إعداد العشاء. قال لي باسماً: "من أجل حكايتك الحزينة التي سردتها على مسامعي اليوم، سأتناولُ عشائي متأخّراً ربما لأوّل مرّة منذُ فَقْدِ زوجتي التي توفاها الله منذُ ثلاث سنوات. ترَّحم عليها، وذكرها بخيرٍ".

استأنف كلامه: "في غالبية الأحوال، أتناولُ طعامَ العشاء فورَ

عودتي من أدائي الصلاة في المسجدِ النبويِّ".

شعرتُ بالحرجِ من كلامه لكنَّه هوَّن عليَّ الأمر. وانتبهتُ إلى أنَّني - منذُ دخولي بيتهِ - لمْ أرَ زوجته أو ذريَّته. وأدركتُ أنَّه رجلٌ وحيدٌ في هذا البيت الواسع الأنيق والجميل. وقرَّرتُ أن أستجليَ هذا الأمر من الجاريةِ الحبشيَّة مرجانة في وقتٍ لاحقٍ، فلا أزال في أوَّل الطريق، ومن المبكِّر الإحاطة بكلِّ ما يخصُّ هذا الرجل الفاضل والغامض الذي فتحَ لي أبوابَ بيته بكلِّ هذه الأريحيَّةِ والكرمِ والسخاءِ.

بعد وقتٍ قصيرٍ جاءت الجاريةُ بالعَشاءِ، فتناولناهُ معاً على الطاولة الضخمة في الصالَة الكبيرة. بعد تناول العَشاءِ البسيط المكوّن من خبزِ الشعير، وعسلٍ ولبنٍ، وقليلٍ من الفواكه، طَلب منّي الذهاب إلى حجرتي للرَّاحة استعداداً لأداءِ أوَّل مهمَّة تُسند إلي يوم غدٍ.

١٥

بيتُ الوجيهِ: عبد الرحمن المدني - زقاقُ الطيّارِ - ٣

لأوّل مرّة، أنامُ نوماً هادئاً مطمئناً منذُ أسابيع طويلة. سأصحو يومَ غدٍ وقدْ عدتُ رجلاً حُرّاً. في تلك الليلة، رأيتُ أمّي في الحلم تبدو سعيدةً وراضيةً وهي في أفضل حال، وحينما استرجعتُ حلمي في فجر اليوم التالي كنتُ قانعاً أنَّ ما حدث لي في الأسابيع الماضية كان شيئاً مثل أضغاث أحلام مفزعة سرعان ما تتضاءل وتمضي في حال سبيلها. استحممتُ على عجلٍ، وبدّلتُ ثيابي، وقرّرتُ أنْ أتجوّلَ في شوارع المدينة بمفردي، واستكشاف شوارعها وأحيائها وأسواقها وأحواشها بمفردي مثلي مثل أيِّ رجلٍ حُرٍّ يذهبُ ويعودُ حيثما شاء.

خرجتُ من البيت والجميع لا يزالون نائمين. فتحتُ البابَ وسرتُ متمهلاً مستنشقاً هواءَ الفجرِ النديِّ صوب البوابة الكبيرة. خرجتُ ولم يعترضْ سبيلي أحدٌ. مشيتُ في كلِّ الاتجاهات. عبرتُ أحياءً وأزقّةً وأحواشاً وشوارعَ كثيرةً، وفي كلِّ مرّة، كنتُ ألتفتُ نحو بيت سيّدي حتّى لا أُضيّع مكانه. توقّفتُ عند مبنى مهيب مكتوب على لوحة عليه: مبنى البلديَّة، ثمَّ سرتُ في اتِّجاه

آخرَ، فلمحتُ محطَّة القطار، أو "الاستسيون". كانت فارغةً من النَّاس في هذا الوقت سوى من عددٍ قليل من العمال بدؤوا تنظيف المساحات المحيطة بالمحطَّة. وأشدُّ ما كانت أمنيتي أنَّ هذا القطار ينطلقُ في يومٍ ما إلى مكَّة؛ لو كان هذا الأمر، لعدتُ إلى هناك فيه متحاشياً السَّير في الصحراء لأنجوَ من اللصوص وقطَّاع الطرق والطريق ومفاجآته التي لا تسرُّ. لكنَّه - كما سمعت - يبدأ أو ينتهي من المدينة المنوَّرة، وينطلق شمالاً حتَّى بلاد الشام، ثمَّ إلى وجهته النهائيَّة في إسطنبول. رأيتُ قلعةً مهيبةً مبنيَّةً من الحجر يبدو أنَّها القشلة الخاصة بالجنودِ العصمليين. مررتُ بالكثير من الأسبلة والرباطات والمكتبات والأحواش، ولمحتُ بيوت الموسرين تطلُّ أعاليها من فوق الجدران المرتفعة. أثناء عودتي رأيتُ الحوانيت تفتح أبوابها والصخب يتصاعد والزحام يزداد، وفكَّرتُ أنَّ سيِّدي (عبد الرحمن المدني) أو مرجانة (الجارية الحبشيَّة) ربما سيعتقدان أنَّني قد فضَّلتُ الهربَ على البقاءِ معهما، فشعرتُ بالحزنِ لهذا الخاطر، فقرَّرتُ العودةَ إلى البيتِ لأرى ماذا سيطلب منِّي كموظَّف، كما قال لي السيِّد عبد الرحمن المدني.

حينما عدتُ من جولتي وجدتُ الوجيه عبد الرحمن المدني بانتظاري جالساً بالقربِ من المكتبة. توقَّعتُ أنَّه سيوبّخني مثلاً، أو يلقي اللوم علي بسبب خروجي من البيت بلا إذن منه، ولكنَّه نادى عليَّ طالباً منِّي استكمال كتابة بعض صفحات الكتب التي أحضرناها من المكتبة أمس. جلبتُ دواةَ الحبرِ والأقلامَ، فملأتُها بالحبرِ، ثمَّ بدأتُ عملي. أثناء خروجه من البيت قال إنَّه سيعود بعد

صلاة الظهر، وإنني حُرٌّ في بقيَّةِ الوقت ما دمتُ قد أنجزت عملي. جاءت مرجانة بطعام الإفطار، فتناولته على عجلٍ، وانكببتُ على عملي بنشاطٍ وحيويَّةٍ بعد أن اطمأنت نفسي أنّ كلام الوجيه عبد الرحمن المدني كان يعنيه بالفعل، ولم يكن كلاماً لبثِّ الطمأنينةِ في نفسي فقط. بعد صلاة العصر ذهبتُ إلى مكتبة عارف حكمت، وقد استقبلني إبراهيم أفندي (مأمور المكتبة) بترحابٍ حذرٍ في بادئ الأمر، وزال هذا الحذرُ حينما ذكَّرته أنَّني الموظَّف الجديد الذي يعمل عند الشيخ عبد الرحمن أفندي المدني. ناولته الورقة المكتوب داخلها عناوين المخطوطات التي دوَّنها السيِّد لأحملها معي. قضيتُ بعض الوقت في المكتبة. قرأتُ صفحات من بعض الكتب لزيادة معرفتي وتطوير ذاتي، فالمعرفةُ سلاحٌ يجعلك على استعدادٍ كافٍ لمجابهة الجهل، كما قال لي أحدُ شيوخي في حلقة من حلقات التعليم في الحرمِ المكيِّ.

١٦

بيتُ الوجيهِ: عبد الرحمن المدنيّ – زقاقُ الطيّارِ – ٤

مضت الأيامُ والشهورُ رخيَّةً لا يشوب صفاءَها كدرٌ. اكتشفتُ أنَّ العملَ المسند إلي رغم أهميته، فإنه مع مرور الوقت بدأ يُشعرني أحياناً بالملل. السيِّد عبد الرحمن المدني كان يسلِّمني راتبي باستمرار، وبلا أدنى تأخُّر أو انقطاع. فقد خصَّص لي عشرين ريالاً مجيديّاً أستلمها مع بزوغ كلِّ هلالِ شهرٍ هجريٍّ. لم يكن عمل السيِّد عبد الرحمن المدني مجرَّد الذهاب إلى مكتبة عارف حكمت أو سواها من مكتبات المدينة المنوَّرة، بل كان يقيمُ في فناءِ بيته لقاءً أسبوعيّاً يلتقي فيه علماء ووجهاء وفقهاء، ويحضره أيضاً بعضُ أعيان وتجّار المدينة المنوَّرة. كان هذا اللقاء الأسبوعي يتمُّ مساءَ كلِّ خميس من أيام الأسبوع. كانت تلك الأمسيات ثريَّةً وماتعةً، وفيها يجري النقاش في كلِّ الأمور. وفي كلِّ خميس، كان يُسلِّط الضوء على بعض ما يحدث من أحداث سياسيَّة ودينيَّة وتجاريَّة واقتصاديَّة، فتناقش وتسبر أغوارها. كنتُ أرقب هؤلاء القوم، وأتتبَّعُ حديثهم، فأجدُ أنَّ بعضه كان دنيويّاً بحتاً خصوصاً حينما يشارفُ وقت انفضاض سامرهم

على النهاية، فقد كانوا لا يتحرَّجون من قول بعض الطرائف البذيئة، فيظلون يضحكون ويصخبون، وأنا أرقبهم من بعيد.

وتوطَّدتْ علاقتي بمرجانة الجارية الحبشيَّة، فكنَّا أحياناً نذهبُ معاً إلى الأسواق للتبضُّع، ولشراء ما ينقص البيت من مؤنٍ غذائيَّة، أو نذهبُ إلى بعض بيوت أصدقاء السيِّد عبد الرحمن المدني الذين يلتقيهم مساءَ كلِّ خميس، ننقلُ رسالةً منه، أو نأخذُ أشياء منهم ككتبٍ ومخطوطاتٍ وغيرها. مع مرور الأيام لاحظتُ أنَّ مرجانة بدتْ تلمِّحُ لي ببعض الأمور، وتطرحُ عليَّ بعض الأسئلة من قبيل: "ألاَ يوجد لكَ حبيبة؟"، أو "هل تفكِّر في الزواج والاقتران بزوجة في يوم ما؟".

كنتُ أجيبها، بحُسنِ نيَّة، بأنَّني لا أشغلُ نفسي بمثل هذه الأمور، فالوقت لا يزال مبكِّراً للتفكير فيها. ولا أنسى ما حدث في ليلةٍ باردةٍ، فقد فوجئتُ بها تدخلُ إلى غرفتي متسلِّلةً في الهزيع الأخير من الليل. أزاحتْ اللحافَ، ثمَّ استلقتْ بجانبي صامتةً، وحينما شعرتُ بها، وعرفتُ مَن تكون، التزمتُ الصمتَ. لكنَّ نبضات قلبي بدأت تدقُّ بعنفٍ، وشعرتُ بالارتباك لأنَّني لمْ أتعرّضْ لموقفٍ مثل هذا في سابق سنوات عمري. ولم يجمعني فراشٌ من قبل بأيِّ امرأة. ليست لي دراية بالنساء، ولم ألمسْ امرأةً في سابق سنوات عمري. كنتُ سعيداً وخائفاً ومرتبكاً في الوقت نفسه، ولا أعرفُ ماذا سأفعل حيال هذا الأمر، ثمَّ شعرتُ بيدها تتسلل إلى شعر صدري النابت، وتداعبه قبل أن تنزلق يدها إلى بطني، ثم عانتي! أمسكتْ بشيئي، وأخذتْ تداعبهُ، فنهضَ من رقدتِهِ لأوَّل مرَّة منذُ كنتُ أشعرُ به ينهض في الليالي الباردة في براري مكَّة، هناك في خيمتي المصنوعة من الشعر. طلبتُ

منها بصوتٍ مبحوحٍ أنْ تتوقَّفَ، ولكنَّها لم ترد عليَّ سوى بلهاثها، وتصاعد أنفاسها. مع الفجر قفزتْ من السرير. ارتدتْ ملابسها، وتسلَّلتْ عائدةً إلى حجرتها. بعد خروجها انتابتني مشاعر مختلطة عجزتُ بسببها عن النوم، فقدْ أحسستُ بجلدي القديم يتقشَّرُ من فوق جسدي، وأنني أكتسي بجلدٍ جديدٍ غادرته البراءةُ للأبد. وشعرتُ أنَّني قدْ خُنت سيِّدي ووليِّ نعمتي، السيِّد الفاضل عبد الرحمن المدني، بفعلتي. لكنَّ العجيبَ أنَّ مثلَ هذه المخاوف بدأت تتلاشى منِّي تدريجيّاً ويحل محلَّها أفكارٌ أخرى، وتغيَّرت نظرتي إلى الأشياء من حولي، وحينئذ أدركتُ أنَّني قدْ خرجتُ من إهاب الطفولة إلى الرجولة المكتملة رغم أنَّ سنِّي لم تتجاوز السادسة عشر.

ولبثتُ على هذه الحال قرابةَ العام، أسيرُ في المنوال نفسه، متأرجحاً بين البيت ومكتبة عارف حكمت، والمكتبة المحمودية، وإنْ على نحو أقل. وحفظتُ تفاصيل جسد مرجانة الحبشيَّة، الذي كنتُ أزوره في كلِّ ليلة تقريباً. وبسببِ تلك الزيارات الدبقة، عرفتُ بعضَ الأمور عن الشيخ عبد الرحمن المدني. عرفتُ أنَّ زوجته ماتت منذ سنوات، وقد أصابه الحزن لفقدها، فلم يتزوَّج بعدها، وله ابنةٌ تعيشُ مع زوجها الذي يعملُ في مصلحة الجمارك في جدَّة، وله ابن يدرسُ في مصر بعد أن رفض الوجيه عبد الرحمن المدني أن يدرسَ في المدارس التي أنشأها الأتراكُ هنا حتَّى لا يدخل في الخدمة العسكريَّة الإجباريَّة في الجيش بعد تخرُّجه كما هي العادة. ويمتلك بيتين آخرين أحدهما في حي المستراح (شمال الحرم النبوي)، والآخر في زقاق سيِّدنا إسماعيل، وإن كانا أصغرَ حجماً من بيته في

زقاق الطيَّار الذي كان يفضِّلُ المقامَ فيه كثيراً.

كانت الأيامُ تسيرُ على الوتيرة نفسها حتَّى دخلتُ مساءَ يوم جمعة إلى البيت، وكان ذلك يوم إجازتي الأسبوعيَّة. وجدتُ سيِّدي السيِّد عبد الرحمن المدني جالساً على كرسيٍّ بجانب المكتبة، ويبدو فيه ساخطاً غاضباً صامتاً. كانت تلك أوَّل مرَّة أراهُ في مثل هذا الحالة. فلم أعهده إلّا بشوشاً، واسعَ البالِ، عليه سمتُ العلماءِ والفقهاءِ، ولكنَّه في هذا المساء بدَا لي مختلفاً كثيراً عمَّا عهدتُ فيه من طبع. انقبضَ قلبي خشيةَ أن يكون لنزواتي الليليَّة مع مرجانة سببٌ في غضبه وتبدُّل حاله. دخلتُ مع الباب، فلمحتُ مرجانة واقفةً على باب المطبخ صامتةً عابسةً، وحالما رآني سيِّدي أشارَ لي بالاقتراب. اقتربتُ منه متوجِّساً، ولبثَ زمناً لا يتكلَّمُ، ولكنَّه نطقَ أخيراً بكلماتٍ لم أفهم معناها في ذلك الوقت: "لقد أعلنَ شريفُ مكَّة وولداه الثورةَ العربيَّةَ علَى الحكم العثمانيّ".

قال ذلكَ، ثمَّ عادَ إلى صمته، في حين أنني لبثتُ لا أفهم شيئاً ممَّا تفوَّه به سيِّدي عبد الرحمن المدني منذ قليل. أرسلتُ بصري نحو مرجانة مستفسراً منها بنظراتي ولكنَّها هزّت كتفيها معلنةً أنها لم تفهم أيضاً ما يقصده الوجيه!

١٧

بيتُ الوجيهِ: عبد الرحمن المدني – زقاقُ الطيّارِ – ٥

الثورة العربيّة؟ ماذا يعني هذا الكلام؟

حاولت الاستزادة من السيّد الوجيه عبد الرحمن المدني، ولكنَّه ترك مكانه وهو لا يزال ساهماً وواجماً، آخذاً خطواته نحو حجرته في الدور الأعلى وهو يتوكأ على درابزين السُلَّم، ناقلاً قدميه ببطء. ولا أعرفُ لماذا عندما نظرتُ له – آسفاً – وَهو في تلك الحالَة شعرتُ أنَّه قد أصبح عجوزاً في أرذل العمر، فقد كبُرَ عمره فجاةً، وقد تلاشى ذاك التوهُّج المنبعث من عينيه، وبدا لي شيخاً لا حولَ له ولا قوَّة...

تساءلتُ بيني وبين نفسي: هل ما قاله الوجيه منذُ قليل أمرٌ جللٌ إلى هذه الدرجة؟

جاءني الجواب عن سؤالي، ليس من السيّد المدني، بل ممَّا رأيته بأمّ عيني في لاحق الأيام ممَّا حدث في المدينة النبويَّة. فقد حملَ لنا القطارُ في رحلاتٍ متتالية مئات الجنودِ العصمليِّين الذين نزلوا في المحطَّة، أو "الاَستسيونَ". كاَنت وجوههم كالحةً وتطلُّ من

عيونهم نظراتٌ قاسيةٌ، يحملون أسلحتهم وهم في حالة استنفارٍ قصوى، ثمَّ جاءت دفعاتٌ أخرى قادمة من إسطنبول، ومن حاكم الشام جمال باشا، بعد أنْ استعانَ به فخري باشا حاكم المدينة المنوَّرة ليعزِّزَ إحكام قبضته على المدينة. تحصَّن الجنودُ القادمون الجددُ في القلعة بالقربِ من حي العنبريَّة، وحول مقر إقامة فخري باشا، وخارج السور أيضاً. كنتُ أرى الذهولَ بادياً على وجوه الناس أثناء ذهابي إلى مكتبة عارف حكمت، هذا الوجوم والذهول تحوَّل مع مرور الوقت إلى رعبٍ وخوفٍ مكتوم حينما وصلت الأخبار إلى المدينة بأنَّ شريف مكّة قد جهزَ حملةً عسكريَّةً بقيادةِ ولديه وهو بصدد إرسالها إلى المدينة النبويَّة في الوقت القريب لتخليصها من براثن فخري باشا. وقد انطلقت الشرارةُ الأولى في المدينة المنوَّرة حينما وقف شابان بيديهما بيرقٌ وهما يناديان الناسَ للجهادِ.

ومن هنا، حدث التحوُّل الكبير في مدينة رسول الله الهادئة الهانئة. بدأ هذا التحوُّل خفيفاً لكنَّه أصبح كالسيل الهادر مع مرور الأيام. الجنودُ العثمانيون الذين جاؤوا من إسطنبول وبلاد الشام بدؤوا مضايقة النَّاس في الشوارع والأسواق. كان هذا على مناوشاتٍ بسيطةٍ سرعان ما تطوَّرت إلى احتكاكاتٍ داميةٍ بينهم وبين الأهالي. مع مرور الوقت، وتوالي الأخبار القادمة من مكّة، كانوا يهجمون على الحوانيت والدكاكين، فيستولون على ما فيها من أرزاق وبضائع بقوَّةِ السلاح. وحدثت معاركُ كثيرة بين الأهالي والجنود كانت تنتهي غالباً بقتل بعض المحتجين أو إيداعهم السجن الواقع في حي المناخة تحت حراسة مشدَّدة. وحمل لنا القطارُ المزيدَ من الجنود

والمزيدَ من الجنونِ والانفلاتِ. وبسببِ وجود هذا العدد الهائل من الجنود العصمليّين، بدأت الأرزاق والمواد الغذائية تختفي من الأسواق، والحوانيت والدكاكين تغلق أبوابها بسبب شحّ التموين ونهبها من الجنود الغاضبين. كانت الصدورُ محتقنةً، والأنفسُ تميلُ إلى المشاكسةِ، حتّى حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد أعلن حاكمُ المدينة، القائد فخري باشا، خطّةِ إجلاء سكّان المدينة إلى الشام وإسطنبول تحت ذريعة حماية الأهالي من الحرب الوشيكة الاندلاع، وأنّه بسبب نقص المؤن لن يستطيعَ أن يوفرَ لهم الغذاء لعام على الأقل. وقع الخبرُ كالصاعقةِ على الأهالي، ومع ذلك تحدُّوا الحاكم، ولم ينفِّذوا ما أمر به.

وفي مجلس من مجالس الخميس التي كانت تُقام في بيت السيِّد عبد الرحمن المدني، سمعتُ أحد ضيوفه من الأعيان يقولُ والغضبُ يمتزجُ بكلماته: "هذا المجنون يريد عزل المدينة عن مكّة، وضمّها وجعلها تحت جناح الدولة العثمانيّة في الآستانة".

وتعالت صيحاتُ الاستهجانِ من روّاد المجلس، وقال أحدهم بنبرةٍ عالية: "منذ أوجدنا الله على هذه الأرض المباركة ونحنُ نرى مكّةَ المكرّمة والمدينة المنوّرة مدينتين مقدستين لا يجوز الفصلُ بينهما".

ثمّ احتدم النقاشُ حول خطّة فخري باشا في ترحيل سكّان المدينة الاختياري إلى الشام.

قال أحدُ الرجالِ بحزنٍ: "سيتحوّل إلى ترحيلٍ إجباريٍّ مع الأيام المقبلة، وسترون صدقَ كلامِي".

صاحَ أحدُ الرجالِ: "هل هذَا يُعقل؟ وماذا سنعملُ حيالَ هذا الأمرِ؟".

عند هذا السؤال بالذات، سكتَ الجميعُ، ولم ينبس أحدٌ منهم ببنتِ شفةٍ.

١٨

القلعةُ العثمانيَّةُ، القشلةُ - المدينة المنوَّرة

كان فخري باشا يسيرُ في مقر إقامته في القشلة عاقداً يديه خلف ظهره حيناً، ومتحسّساً شنبه الكثّ المبروم طرفاه إلى الأعلى حيناً آخرَ، حينما عرف أنَّ ابني الشريف عسكرا بقواتهما في قريتي الجفر، وبئر درويش، بالقربِ من المدينة. حينما شعرَ بالتعبِ من الحركة الدائبة داخل الحجرة، جلس على مكتبه، ووقف على يمينه مساعده، ناجي كاشف باشا كيجمان، الذي كان في حالة تيقظ دائم، للاستماع لأوامره وتنفيذها من الفور. وحينما سأل فخري باشا عن عددِ مَن تقدَّم من الأهالي للسفر الاختياري إلى بلاد الشام، أو إسطنبول، قال له المساعد: "لا أحد".

حينذاك توقَّف فخري باشا عن النظرِ في أوراقٍ كان يقرأُ منها وقد اكتستْ ملامحه بالغضب، فصاح في مساعده: "وماذا يريد هؤلاء العربانُ الفاسدون أن نفعل لهم لنجنِّبهم ويلاتِ الحربِ والجوعِ؟ من أين لي إطعامهم (هم، وأفراد الحامية، والجنود) ونحنُ محاصرونَ؟".

لم يجب المساعد، فصاحَ في وجهه فخري باشا: "هل لديك

حلولٌ حيالَ هذا الأمرِ؟".

هزَّ المساعدُ رأسه بالنفي.

صرخ فخري باشا في وجهه مرَّة أخرى: "إذا عجزت عن إيجاد حلول لهذا العصيان، فأنا لديَّ الحلُّ. اسمع ما أقوله جيداً ونفِّذه بحذافيره، فهو فرمان من حاكم المدينة ولا مناصَ من العمل به. ضع شريطاً أمنيّاً من جهات المدينة الغربيَّة والشرقيَّة والجنوبيَّة، ودَعِ الجهة الشماليَّة مفتوحةً لكي يمرَّ منها القطارُ، وحتَّى لا يهربَ القادِرون من أهلها فينضمُّوا إلى شريف مكَّة أو أتباعه في قرية بئر درويش والجفر وينبع وما حولها. ثمَّ أقفلوا الحوانيت والدكاكين بل الأسواق بكاملها، فإذا جاعَ هؤلاء العربان، فسيخرجون من المدينة صاغرين. امنعوا البيعَ والشراءَ بكلِّ وسيلة. وصادروا كلَّ ما تجدونه من مواد غذائيَّة حتَّى التمر. شكِّل فرقةً من الجنود لتجميعه من النخيل بالقوة الجبريَّة إذا لزم الأمر. ضعوه في صناديق، واحتفظوا به في القلعة ومستودعات ثكنات الجنود".

نفَّذ المساعدُ ناجي كاشف باشا ما طُلب منه. نشرَ قوَّةً عسكريَّةً مكوَّنةً من ألفي جنديٍّ ليحيطوا بالمدينة من جهاتها الثلاث باستثناء الشماليَّة، وفور أنْ أتمّ مهمَّته، كوّن فرقةً من الجنود المسلَّحين تسليحاً جيداً، ثم سار بهم إلى الحارات والأحوشة التي توجد فيها الأسواق، فهجم على الحوانيت والدكاكين، فصادر ما فيها من بضائع ومواد بقوَّة السلاح، وأغلق الأسواق مانعاً البيعَ والشراءَ. استولى على أكياس الحنطة "اللقيمي"، والحنطة "المعية" في سوق الحبَّابة. ذهب إلى الأفران التي تُعِدُّ الخبزَ، واستولى حتَّى على العيش الجاف المعروف

بـ"القنيطة" لسهولةِ تخزينه وبقائه مدة طويلة دون أن يفسد، ومنع بيع التمر في سوق التمّارة بالقرب من باب المجيدي. توجّه إلى بساتين النخيل في العقيليّة، وبساتين الدوار والغرس وسوالة، فأمر الفلاحين بقصّ عراجين التمر تحت تهديد السلاح، وتعبئته في زنابيل وحاويات مصنوعة من خوص النخيل أحكم إغلاقها، ثمَّ سار بغنائمه إلى القشلةِ ومعسكرات الجند داخل وخارج السور، وهناك خزّنوها في مستودَعات خُصِّص لها حراساتٌ مشدَّدةٌ.

حينما سمع الشيخ عبد الرحمن المدني بما فعله جنود فخري باشا، قال ساهماً: "ماذا يعني هذا؟".

لمْ أستطعْ أنْ أقدِّمَ أيَّ جوابٍ حينما نقلتُ إليه هذه التطوُّرات التي راقبتها ورأيتها بنفسي عن كثب. قال الشيخ عبد الرحمن المدني يخاطب نفسه ويفكر بصوتٍ عالٍ: "إنَّ المدينة لا تجوع وفيها الأسودان: التمر، والماء!".

لكنَّ المدينة قد بدأت تجوعُ، وشبحُ المجاعةِ يهددُ الناسَ، ويطلُ بوجههِ الكئيب على الجميع.

١٩

المسجدُ النبويُّ الشريفُ

كانت استجابة النَّاس للترحيل بطيئةً، فمنهم مَن تمكَّن مِن التسلُّل وهرب باتِّجاه مكَّة وينبع من خلال طرقات ودروب غير مطروقة للنَّاس، وأحياناً تيسر خروجهم مع عائلاتهم عن طريق دفع بعض الرشى للجنودِ العثمانيين الذين بدؤوا يفقدون الأمل في انجلاء الغمَّة بسبب تعنُّت فخري باشا وعناده. فالأخبارُ القادمةُ تؤكِّدُ أنَّ الجيوش العثمانيَّة قد هُزمت، ومُزِّقت شرَّ ممزَّقٍ أمام جيوش الحلفاء، وأنَّه لا بديل عن الاستسلام عاجلاً أم آجلاً، بل انتشر خبرٌ بين الجنود أنَّ الآستانة قد أرسلت إلى فخري باشا أن يستسلمَ ويُلقي السلاحَ، ويخرجَ من المدينةِ، ويسلِّمها للشريفِ وأبنائه، ولكنَّه رفضَ تنفيذَ الأمرِ.

أراد القائدُ فخري باشا أنْ يوضِّحَ للنَّاس أنَّ أمر ترحيلهم لا تراجع عنه مهما كانت المبرِّرات والأسباب، وفي سبيل ذلك، استدعى إمامَ الحرمِ إلى مكتبهِ، وطلب منه بكلِّ هدوءٍ ممكنٍ الرحيلَ الفوريَّ إلى الشامَ برفقة أهلِ بيته وأبنائه، وبلا إبطاء. استجاب إمامُ الحرمِ للأمرِ

لأنّه اعتقدَ أنَّ خروجه من المدينة سيجعل الكثيرَ من سكانها يسارعون إلى الخروج رأفةً بهم وبعائلاتهم ممّا يحدث من تجويع مقصود. حزم حقائبه، وأقفل بيوته ودوره، وذهب إلى "الأستسيون" والنَّاس تراهُ يمشي في طريقه حزيناً منكّسَ الرأس برفقة عدد من المكاريّة الذين يؤجّرون دوابهم لحمل الأمتعة. شعر سكّانُ المدينةِ بشيءٍ مثل فجوةٍ كبرى تتّسع داخل نفوسهم برحيل الإمام، فقد كان هذا تطوراً لافتاً في سير الأحداث التي تتسارع هنا في المدينة النبويّة. رَحَلَ مع إمام الحرم عددٌ لا بأس من الأسر وأقربائه ومحبيه وتلامذته. كانوا يسيرون في شوارع المدينة صامتين لا ينبسون ببنتِ شفةٍ، ورفضوا رفضاً قاطعاً أن يودّعهم أحدٌ. كان الأملُ الذي يحدوهم أنَّ غيابهم سيكون مؤقتاً ريثما تنجلي غبار الحرب الوشيكة، وأنّهم سيعودون إلى بيوتهم ومنازلهم مرّة أخرى.

كان لدى فخري باشا الكثيرُ من الأسلحة والديناميت الذي كان مخزّناً في حاويات في أماكن تقع بالقرب من السور، وفي القشلة بالقرب من العنبريّة. كانت تأتي له أخبار غارات طائرات الحلفاء من هنا وهناك، فتزيده رعباً وخوفاً. ولا يعرف لماذا جاءه توقّعٌ حادٌّ بأنَّ المدينة سوف تتعرّض للقصفِ بالطائرات الحربيّة، فالحربُ لا تعرف هذه مدينة مقدّسة أو غير مقدّسة. وخطرَ له خاطر أن ينقلَ هذه الأسلحة داخل المسجدِ النبويّ، فهو مكانٌ آمنٌ، ولنْ يخطرَ على بالِ أحدٍ فكرة أن يكون هناك سلاحٌ وديناميتٌ في ثاني أقدس مكان للمسلمين قاطبة. فكّر كثيراً في عواقب هذه الخطوة الخطيرة، فقنبلةٌ ملقاةٌ من طائرة لو عشوائيّاً كفيلةٌ بتدمير المكان الثاني قدسية

في نفوس المسلمين في كل أصقاع الأرض، لكنَّ الحربَ لا ترحمُ أحداً، وتجعل الحلول التي تحمل مخاطرةً ومجازفةً مجرَّد حلولٍ عاديَّة، وهجسَ لنفسه قائلاً: "هل يُعقل أنْ يتجرَّأ أحدٌ ما على ضربِ مسجدِ رسولِ الله بالقنابلِ؟".

ارتعش جسده حالما فكَّر في الجواب. فالحربُ عمياء تدهسُ كلَّ شيءٍ في طريقها غير عابئةٍ بالمخاطرِ ولا الآلام. لكنَّه حسم أمره؛ سينقل أسلحته إلى المسجدِ النبويِّ وليكنْ ما يكون. حرص أن يتمَّ الأمرُ بسريَّةٍ تامَّةٍ، فهو في غنى عن أيِّ احتجاج من الأهالي في مثل هذا الوقتَ بالذات. خصَّص لهذا الأمر ثلَّةً من الجنودِ ممَّن يحسنون التعامل مع السلاح، وزوَّدهم بعربات تجرُّها الخيولُ لنقلها إلى المسجدِ النبويِّ الشريفِ. لكنَّ السرَّ لمْ يدمْ سرّاً، فقد أثارت هذه العربات القادمة من مستودعات السلاح في القشلة وحول السور، وهي متَّجهة إلى المسجد النبوي، حاملةً صناديقَ معدنيَّةً محكمةَ الإغلاقِ، أثارت عيونَ النَّاسِ، وسرعان ما أدركوا في ما يفكر فيه هذا الحاكمُ الأهوجُ، وتساءلوا: كيف يمكنُ لهذا العلج أن يلوِّثَ مسجدَ رسول الله بالأسلحةِ والديناميت ويعرِّضه لمثلِ هذا الخطرِ؟

تصاعدت بعضُ الاحتجاجات، واحتجَّ بعضُ المصلِّين بعد أداء الصلوات، وعلا صوتهم. كانوا يصرخون في وجوه الجنود الذين عُهد لهم حماية ومراقبة السلاح في المسجدِ النبويِّ لكنَّ فخري باشا أمرَ بكلِّ مَن صدر منه احتجاج بإيداعه السجن الملحق بالقشلة، وحينما وصلت هذه الأخبار إلى السيِّد عبد الرحمن المدني ورفقائه من الوجهاء والأعيان، قال غاضباً: "مَن يفعل هذا بمسجدِ نبيه

ومدينته لا يمكن أنْ يكونَ مؤمناً بالله وبمحمدٍ رسوله. هل يُعقل أنْ يُحوَّلَ مسجدُ الرسولِ إلى ثكنةٍ عسكريَّة؟ لم يفعلها أحدٌ من قبله!".

تعالى النقاشُ بينهم، ذلك النقاش الذي كان الغضب عنوانه الأكبر والسائد. واقترح أحدُهم أن يشكّلوا وفداً لمقابلة هذا الباشا الأحمر الوجه لثنيه عمّا فعله، وأنْ يقنعوه بإخراج الأسلحة من المسجدِ النبويِّ وتخزينها في مكانٍ آمنٍ أكثر بعيداً عن المسجد، بل عن المدينةِ بكاملها. لكنّهم بلعوا هذا الاقتراح عندما علموا أنَّ كلَّ مَن أعلن رفضه فعل هذا الأمر كان مصيره السجن، والترحيل الإجباري إلى الشام من الفور ودون نقاش، بعد مصادرة أمواله وداره. وإذا زادَ الأمرُ عن حدِّه، فسوفَ يُساق المحتجُ إلى حاكمِ الشام جمال باشا الذي لُقِّب بالسفّاحِ والذي أعدمَ أكثر من عشرين رجلاً نادوا بالانفصال والاستقلال والتحرر من حكم الدولة العثمانيَّة الموشكة على الانهيار. وربما مَن اعترض، سيُرحَّل إلى الآستانة مخفوراً ومصفَّدَ القدمين والرجلين للبتِ في أمره. وفي غالبية الأحوال، مَن ساءَ حظه، وسِيقَ إلى الآستانة، فإنَّه لن يعود، بل يلبث هناك في السجن ويموت فيه ولا أحدَ يشعرُ به! سكتوا على مضضٍ وهم يفكرون في ما ستكون من قرارات أخرى لهذا الباشا الذي ضرب بعرضِ الحائط أمنَ أحد مقدّسات المسلمين ودنّسه بالأسلحة التي من الممكنَ استهدافها من الأعداء، ما سيكون له عواقب لا أحدَ يتوقَّعُ مدى ضررها.

٢٠

محطّة القطارِ - حيُّ العنبريّةِ

طلبَ الباشا فخري من شباب المدينة المساهمةَ في تحويل مسار سكّة الحديد من حي العنبريّة حتّى ناحية باب السلام بالقرب من الحرم. وقال مساعد فخري باشا، ناجي كاشف باشا، في بيانه الذي انتشر بين الناس إنّهم لن يدفعوا مالاً جرّاء خدمتهم، ولكنّه سُيقّدم إلى كلّ شخص وجباتِ الطعام الثلاث مجاناً. زاد حنق الناس على الباشا بسبب هذا القرار الذي كانت له توابعُ كثيرةٌ منها هدمُ بيوتٍ تسكنها عائلات كثيرة وإزالةُ طرقٍ وشوارع وأحواش ممتلئة بالناس بلا أي تعويضات. تساءلوا عن المغزى من هذا التحويل لكنّهم أخفقوا في معرفة السبب! استعان فخري باشا مرّة أخرى بجنودٍ لإخلاءِ مَن كان بيته على مسار القطار دون مقابل أو تعويض، فمَن استجاب، تُرك وشأنه، ومَن احتجَّ، كان أمامه عقابان: إيداعه السجن، ثمّ ترحيله مقيّداً إلى الشام في أقرب رحلة للقطار.

أخذت المعاول تهدمُ المنازلَ فوق رؤوس أصحابها ممّن رفضوا التسليم، وهُدّمت بيوتٌ كثيرة، وتضرّر أهم شارع، وهو شارع

العينية. فقد كان من أكثر شوارع المدينة اكتظاظاً بالسكّان، وتكثر فيه الدكاكين والمحلات التي تبيعُ كلّ الضروريّات لحياة الناس. ضجَّ الأهالي، وتوجَّهوا إلى أعيان المدينة وعِلية القوم كي يقدِّمُوا إليهم الغوث والمساعدة، ولكنّهم لم يحظوا منهم سوى بالصمتِ، فعادوا منكسرين، وسلَّموا أمرهم لله. بعضهم خرج من المدينة مستوطناً ضواحيها، وبعضهم ذهب سرّاً إلى مكّة وغيرها من المدن والقرى. بعد إزالة المساكن والبيوت ومخلّفاتها، بدأ رصف سكة الحديد. استعان فخري باشا بمهندسي صيانة وحدادين استدعاهم من محطّة تبوك لهذا الغرض. وسخَّر شباب المدينة الذين قرصهم الجوعُ والفاقةُ، والذين اضطروا إلى قبول العمل لينقذوا أنفسهم وأهليهم من الموت جوعاً. كان المشرفون على تنفيذ المشروع يعطون العمّالَ من شباب المدينة عند حلول الظلام كسرةً من خبزٍ، أو حفنةً من تمرٍ، أو قطعةً من عيشِ "القنيطة" الخشن والجاف. كانوا يعملون أحياناً بالسُخرة من الفجر حتّى غروب الشمس وينهون يومهم دون أن يحصلوا على كسرة خبزٍ واحدةٍ رغم الوعود. استمرَّ العملُ في إنشاء سكّة الحديد من العنبريّة إلى بابِ السلام بالقرب من المسجدِ النبويِّ قرابة شهرين بلا توقف. كانت المسافة تُقدَّر بكيلومترٍ واحدٍ تقريباً لكنّها أخذت كلَّ هذا الوقت الطويل بسببِ أعمال الهدم والإزالة وتنظيف مخلَّفات هدم المباني والبيوت والأسواق والشوارع. بعد الانتهاء من وضع قضبان سكّة الحديد، تحركت عربتان من المحطّة، أو "الأستسيون"، ووقفتا تماماً بالقرب من باب السلام. هنا عرف النَّاسُ لماذا أنشأ فخري باشا هذا المشروع؛ انكشفَ السرُّ الذي

استمرَّ ستين يوماً طي الكتمان. كان الهدف منه نقل كل محتويات الحجرة النبويّة إلى إسطنبول. في العاشر من رمضان، استدعى فخري باشا الكاتب الأوّل للحرمِ النبويِّ، وموظّف الحسابات، وقاضي المدينة. جاؤوا برفقة الجنود وهم في حالة حذرٍ وتحفُّزٍ. أمرهم بإعداد مضبطةٍ لجردِ محتويات الحجرةِ النبويَّةِ الشريفةِ كي توضع في صناديق معدنيَّة تمهيداً لإرسالها إلى إسطنبول خشيةَ تعرضُّها للسرقة في حال تمكّن الشريفُ وحلفاؤه من الانتصار في الحرب واستيلائهم على المدينةِ النبويَّةِ. عبر ثلاثين صفحةً، جُردت المحتوياتِ. كان عددها يقارب ٤٠٠ قطعة شملت الأحجارَ الكريمةَ من ألماسِ وياقوتٍ وزمرّدٍ، والأدوات الفضيَّة والشمعدانات والقناديل التي كانت تضيءُ الحجرةَ النبويَّةَ الشريفةَ. وشملت القائمة بُردةَ الرسولِ وسيوفه والإهداءات التي كان يهديها سلاطين بني عثمان للحجرةِ النبويَّةِ على مدى قرون. عُبِّئت تلك المحتويات في صناديق محكمة الإغلاق، ثمَّ أرسلها بواسطة القطار تحت حراسة ثلاثة آلاف جنديٍّ لضمانِ حمايتها ووصولها بسلام إلى الآستانة.

حينما سمعَ الشيخُ عبد الرحمن المدني هذهِ الأحداث، ابتسمَ بمرارة، ثمَّ قال لأصحابه في مجلسهم المنعقد في بيته وهم يتناولون طعام السحور: "هذه لصوصيَّةٌ واضحةٌ للعيانِ، ولا يمكنُ أنْ تكونَ غيرَ ذلكَ".

ران الصمتُ على البقيَّة زمناً قطعه أحدُ الوجهاء قائلاً: "نقل محتويات الحجرة النبوية إلى إسطنبول لا يُفسَّر إلّا بتفسيرٍ واحدٍ هو أنَّ فخري باشا يتوقّع هزيمته وطرده من المدينةِ النبويَّةِ".

صمتَ قليلاً، ثمَّ قال لجلسائه بصوتٍ خفيضٍ: "وعلينا أن نتوقعِ الأسوأ في الأيام المقبلة، فهذه الخطوةٍ تنذر بخَطوات أكثر شراسةً من هذا الرجلِ".

٢١

المدينةُ المنوَّرة

الأيام اللاحقة كان الرعب والخوف عنوانها الأبرز. فقد عادَ القطارُ الذي حمل محتويات الحجرةِ النبويَّةِ محملاً بدفعة من الجنود، بل إنَّ فخري باشا أرسل برقيَّةً بواسطة التلغراف إلى الآستانة طالباً المزيد من المدد. نزلوا في المحطَّة "الأستسيون" وانتشروا مثلَ الجرادِ. كانوا يسيرون في انتظامٍ عسكريٍّ مهيبٍ وهم يحملون أسلحتهم، ووجوههم العابسة الناضحة بالغضب تثيرُ الخوفَ في كلِّ مَن وقعَ بصرُه عليهم. هذه الدفعة من الجنود اختير أفرادها بعناية فائقة لتنفيذ مهمَّةٍ وحيدةٍ فقط هي تهجيرُ سكَّان المدينة النبويَّةِ تهجيراً إجباريّاً لا يُستثنى منه أحدٌ حتَّى الأطفال والنساء. بعد وصولهم بيومين للاستراحة من وعثاء السفر، أطلقهم فخري باشا في حارات وشوارع وأحواش المدينة وأحيائها.

ولأنَّ الجنود القادمين كانوا يحتاجون إلى مزيدٍ من الإعاشة والغذاء، أدَّى هذا إلى مصادرة ما تبقى من أغذية وغلالٍ شحيحة من الأسواق، بل إنَّ بعض الجنود كانوا يهجمون على البيوت ليستولوا

على المواد الغذائيّة التي كانت بحوزة الأسر. وبسبب هذه الأحداث الآخذة بالتسارع، برز وجه المجاعة المخيف، فقلّت الأرزاق واختفت وتلاشى ما عندَ الناسِ من مخزون من قمحٍ وشعيرٍ وتمرٍ ادّخروه للأيام السوداء التي حلّت عليهم أسرع ممّا كانوا يتوقّعون.

في خضم هذه الوقائع المؤلمة، كنتُ أخرجُ مع سيدي عبد الرحمن إلى مكتبة عارف حكمت أو المكتبة المحموديّة، كنا نرى الجياع يملؤون شوارع المدينة وأحياءها، ويتقاتلون على كسرةِ خبزٍ أو تمرة ملقاة على الأرض. كان الجنود ينظرون إلينا شذراً، ويظلون يتابعون عربتنا حتّى تختفي في عطفات الشوارع والدروب. خارج السور كان الوضع أسوأ بمراحلٍ، فقد أكل الناسُ الكلابَ والقططَ بسببِ مصادرة فخري باشا كلّ المحصول الزراعي الذي كان في البساتين التي تحيط بالمدينة خارج السور، وسلب الجنودُ من الرعاةِ قطعانهم من الأغنام والخراف والإبل. حتّى مَن كانَ يملكُ المالَ، فقد كان لا يساوي شيئاً، فمن كانَ من يملك المال، لا يجد من يبيعه بهذا المال ما يتبلّغ به المرء من قمح أو طحين أو أرز.

بدأت حجرةُ المَؤونةِ في بيت سيّدي عبد الرحمن تفرغُ من الطحين والشعير والأرز والسكر والدقيق وتمر العجوة والرطب والعسل. فرغت الرفوف التي كانت ممتلئة عن آخرها بالأرزاق والخيرات، ولأنّه يصنّف من أعيان المدينة ووجهائها، فقدْ كانَ يقفُ على بابِ بيته كلَّ يومٍ عشراتٌ من الجائعين والمشرّدين، فكان يعطيهم من حجرةِ المؤونةِ ما يقيم الأودَ. طلب منّي ومن مرجانة أن نعطي السائلين ولكن بمقدارِ ما يفي الحاجة فقط، وألا نردّهم. كنّا

نعطي الجائعين بمقدارٍ قليلٍ ليسدَّ الرمقَ. لم تستمر الحال طويلاً، فقد فرغت حجرةُ المؤونةِ ممَّا فيها من أرزاقٍ، وبدأ ناقوسُ المجاعةِ يطرقُ بيتَ السيِّد عبد الرحمن المدني. كان يبدو لي أنَّه غيرُ مبالٍ. أراه يتصفَّحَ الكتبَ والمخطوطات التي يجلبها من مكتبة عارف حكمت ساهياً مشغولَ البال. تضاءل عملنا في النسخِ والقراءةِ والمناقشةِ، بل اضمحلَّت الرغبةُ وتلاشت، فلم يعدْ عملاً مثيراً يشغلنا بالانغماسَ فيه لأوقات طويلة. وعوضاً عن ذلك كنَّا نجلسُ ساعاتٍ ممتدةٍ لا نكادُ نتحدَّث فيها بكلمةٍ واحدةٍ!

٢٢

بيتُ الوجيهِ: عبد الرحمن المدني - زقاقُ الطيّارِ - ٦

أرسلت ابنةُ السيِّد عبد الرحمن المدني المقيمةُ في جدَّة رسالةً شفهيَّةً إليه ولم تجعلها رسالةً مكتوبةً خشيةَ أن تقعَ في يدِ الجنود العثمانيين، فيتعرّض أبوها للأذى أو للاعتقالِ والترحيلِ. هذه الرسالة قالها على مسامعه رجلٌ قَدِمَ من هناك. كانت ترجوه أن يلحقَ بها في جدَّة الآن من الفور وبلا تردُّد. وإذا كانَ لا يملكُ المالَ اللازمَ للخروجِ، فإنَّها سترسلُ ما يكفيه، أو يبيعِ إحدى دوره في المدينة، وليخرج بلا أيِّ تأخير. شكر سيِّدي الرجلَ المرسولَ، وطلب منه أن يخبرَ ابنته وزوجَها بأنَّ أموره تسيرُ على أفضل ما يُرام، فلا يوجد أيُّ داعٍ للقلق.

لكنَّ الأحداثَ التي تتسارعُ وتيرتها في المدينة كانت أكثرَ سوءاً.

في مساء أحد الأيَّام، جاء أحدُ أصحاب سيِّدي عبد الرحمن المدني من أولئك الذين كنتُ أراهم يعقدون مجلسهم مساء كلِّ خميس. جاءه زائراً سيِّدي، وقال له واللوعةُ تلوِّنُ كلماتهِ إنَّه قد باعَ بيته (ذا الطوابق الثلاثة) مقابلَ كيسٍ من أرز ليقيَ عائلته شرَّ غائلةِ الجوعِ، وإنَّه لم يعدْ يملكُ شيئاً يقدِّمه إليهم. ضاقت لديه خياراته،

وقال إنَّ الخيارَ المتبقي لديه هو تركُ المدينة مهاجراً إلى مكّة. خيَّمَ الحزنُ على الرجلين، فكانا يتحدَّثان والغضبُ المخلوطُ بالأسى بادٍ على وجهيهما. في نهاية اللقاء، احتضنا بعضهما بعضاً وتوادعا على أمل جمع الشمل في يومٍ ما إذا ما انقضت الأزمةُ على خيرٍ. حثَّ ذاك الرجل سيِّدي عبد الرحمن المدني على الخروج من المدينة، فهي لم تعدْ صالحةً للعيشِ في الظروف الحالية. هزّ سيِّدي رأسه وقال له إنَّه سيفكِّرُ في الأمر، وربما التحقَ بابنته وزوجها في جدَّة.

بعد يومين أشارَ لي سيِّدي عبد الرحمن إلى مجموعةٍ من المخطوطات الموضوعة على الطاولة بالقربِ من المكتبة، وطلب منِّي إعادتها إلى إبراهيم أفندي في مكتبة عارف حكمت. قال لي إنَّها مخطوطاتٌ ثمينةٌ يجب أن أحرص على أنْ تصلَ إبراهيم أفندي يداً بيدٍ. سار بضع خطوات إلى حجرته، ولكنَّه توقَّف والتفتَ نحوي وقال: "اذهبْ ماشياً على قدميك ولا تذهب أنتَ والسائس حتَّى لا يلفتَ سيركما بالعربةِ أنظارَ الجنود العثمانيين المتربِّصين".

وحينما هممتُ بالذهاب إلى حجرتي، قال لي: "كُنْ مستعدّاً لتسافرَ معي إلى جدَّة في غضون يومين على الأقل".

– أنا؟

– نعمْ، ألا ترغب في رؤية أُمِّك التي خُطِفتَ منها في براري مكَّة؟

أُمِّي... أُمِّي... يا إلهي!

لقد نسيتها بالفعل في خضمِّ هذه الأحداث. ارتعش قلبي ورقصَ فرحاً. وعادت صورتها لتكتسحَ خيالي من جديد. بالطبع، أرغبُ

في رؤيتها اليومَ قبلَ الغد. سأعودُ إليها بعد غيابٍ لسنتين. سأرجعُ إلى حضنها وخيمةِ الشَّعَرِ وأغنامِي وقنِّ الدجاج في زاوية البيت. سأعودُ إلى الحياة التي أُنتزعتُ منّي انتزاعاً. سيعودُ "ذيبُكِ" يا أمَّاه، ولكنَّه سيكونُ ذئباً بأنيابٍ هذه المرَّة. قلتُ له فرحاً: "لا يا سيِّدي، لمْ أنسَ أُمِّي، ولنْ أنساهَا، وسأكونُ سعيداً بكلِّ تأكيدٍ للقائِها مرَّة أخرى، وأدينُ لكَ بالفضل في ذلكَ لو حدث، وإنِّي أدعو الله أن تكونَ على قيدِ الحياة ولم يقتلها غيابي عنها".

فقال لي باسماً وكانت تلكَ أوَّل بسمةٍ أراها على محيَّاه منذُ اندلاع هذه الأحداث التي عصفتْ بنا وأشاعتْ في دواخلنا الإحباطَ والغمَّ: "إذنْ، كُنْ على أهبةِ الاستعداد. سنخرجُ من هنا تحتَ جنحِ الظلام، وسيكونُ معنا مرجانة".

كدتُ أقتربُ منه لأقبّلَ يديه كما قبَّلتهما حينما قال لي إنَّني لستُ عبداً، وإنَّني سأكونُ موظَّفاً لديه. لمْ أملك سوى شكره على معروفه وإحسانه لي طوال هذين العامين، فلم أشعرْ إلّا كأنَّه أب حنون.

٢٣

بيتُ الوجيهِ: عبد الرحمن المدني – زقاقُ الطيّارِ – ٧

ذبحتْ لنا مرجانة آخرَ دجاجةٍ كانت في قُنّ الدجاج، واحتفظتْ ببيضها ليكونَ طعامنا في وقتٍ لاحق، وقدّمتها عشاءً إلينا مع قليلٍ من الأرز. السيّد عبد الرحمن الذي كان لا يأكل الدجاج اضطُرَّ إلى أكل لحم هذه الدجاجة. كان يفضِّلُ لحمَ الماعز أو الخروف بطرقِ طهيه المختلفة مشويّاً أو مسلوقاً أو حتّى مقدداً. كنا في لقائه الأسبوعي بأصدقائه نُعِدُّ له خروفاً أو جدياً مشويّاً على الفحم. أفعلُ ذلك مع مرجانة في زاويةٍ من فناء البيت الواسع. كنّا نرقبُ ضيوفه وهم يتحدّثون في مجلسهم، ونأتي إليهم في كلِّ مرّة بأطباقٍ من اللحم المشويّ. كان السيّد عبد الرحمن يقول لي: "أنتَ لستَ مضطراً إلى شيّ لحم الخروف، يا بُني، فمرجانةُ تعرف كيف تعمل ذلك بمفردها حتّى من قبل وجودك هنا في هذا البيت".

لكنّني كنتُ أفعل ذلك بإحساسِ خدمةِ الابنِ لأبيه وليس لشيءٍ آخرَ.

امتنعَ السيّد عبد الرحمن المدني عن تناولِ اللّحم منذ اندلاع

الأزمة في المدينة، وطلب منّي ومن مرجانة ألا نشتري اللَّحم من الجزَّارين في السوق أو داخل البيوت لأنَّ بعضَ رجال اكتشفُوا أنَّ جزاراً يقيمُ في حوش أبي ذراع كان يبيعُ لهم اللَّحمَ بطريقةٍ سريَّةٍ في بيته بعيداً عن عيون الجنود، ولكنَّهم اكتشفُوا أنَّ اللَّحمَ الذي كان يبيعه لهم كان بشريّاً! فقدْ دأبَ هذا الجزارُ على مراقبة الجنائز ومتابعتها، وحالما يخرجُ الناس من المقبرةِ كان يحفر القبر مرَّة أخرى فيستخرجُ جثَّةَ الميتِ بعد حلول الظلام، ثمَّ يعودُ بها إلى منزله، فيقطعها ويبيعها للناس في اليوم التالي!

حينما سمعتُ هذا القصة، امتنعتُ عن تناول أيِّ طعام يكون فيه لحومٌ من أيِّ نوعٍ لأيام طويلة، وقد أصابني التَّقزُّز، واكتفيتُ بالماءِ، والحليبِ، والتمرِ، والبيضِ.

بعد الفراغ من العشاء حمدنا الله تعالى على نعمته. ولأنَّ النفوس كانت مقبوضةً وغيرَ راغبةٍ في تبادل الحديث، ذهب كلُّ واحدٍ منَّا إلى حجرته فور الانتهاء من تناول طعام العشاء.

آويتُ إلى فراشي باكراً، فقد أزمعتُ تسليم المخطوطات الثمينة لإبراهيم أفندي في الصباح الباكر. سأذهبُ إلى هناك ماشياً على قدميَّ حاملاً المخطوطات. ربما لا يفتح المكتبة في الصباح الباكر لكنَّني سأنتظره بصبر نافد، فأسلِّمه الأمانة التي حمَّلني إيَّاها سيِّدي وأعودُ أدراجي انتظاراً للخروجِ من المدينة برفقة سيِّدي ومرجانة. سأرجعُ إلى حضنِ والدتي الذي أشعرُ الآنَ بحنينٍ جارفٍ إليه لا أعرفُ هل سأتمكَّن من النوم بسببه هذه الليلة أو لنْ أستطيعَ.

كان نومي متقطِّعاً. زارتني أحلامٌ كثيرةٌ رأيت فيها وجهَ أُمِّي وقد

كساه الحزنُ لفقدي. في حلم آخر، رأيتها مريضةً وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة وحيدةً في خيمةِ الشَّعَرِ في براري مكّة. غفتْ عيناي قليلاً فاستيقظتُ مفزوعاً على صوت الأذان، ولا أعرفُ لماذا اعتقدتُ أنَّه كان أذان الظهر، فهرعتُ من فراشي لأنظرَ من النافذة وأجدَ أنَّه كان الفجر، فالعتمةُ لا تزالُ مخيِّمةً على فناء البيت في الخارج. أدَّيتُ الصلاةَ في حجرتي. جلستُ على سجادة الصلاة وقتاً لا بأس فيه أُقلِّب في خيالي صوراً عدةً للأمرِ الذي سيكون عليه حالُ أُمِّي عندما تراني عائداً بعد سنتين من الغياب. من أسفل وسادتي، أخذتُ الريالات المجيديَّة (رواتبي التي كان السيِّد عبد الرحمن المدني يدفعها إلي كلِّ شهر). رغبتُ في عَدِّها لكنَّني لم أفعلْ خشيةَ أن يفوتني الوقت. وضعتُها في جيبي الأسفل. نهضتُ من مكاني وذهبتُ إلى مكتبة البيت. وجدتُ الظلام لا يزال يهيمن على أركانها. في ضوء بقايا شمعة متآكلة كانت مغروسة في شمعدان معدنيٍّ، لمحتُ المخطوطاتِ موضوعةً على الطاولة كما تركتها مساء البارحة. تناولتها، ولففتها في قطعةِ من الجلد، ثمَّ أخذتُ أولى خطواتي خارج البيت متَّجهاً إلى مكتبة عارف حكمت القريبة من المسجدِ النبويِّ.

٢٤

حوشُ القشاشيّ – المدينة المنوّرة

كنتُ أمشي في الشوارع مشيةَ مودِّع. أسيرُ متمهلاً مراقباً كلَّ ما حولي بعنايةٍ فائقة، وأشعرُ بإحساسٍ غَامرٍ أنني لنْ أرى هذا المكان مرّة أخرى في حياتي، فقد أَزِفَ وقتُ الرحيل والعودة إلى الديارِ. في طريقي، مررتُ ببيوتٍ كثيرة مفتوحة الأبواب وهي فارغةٌ من أهلها ويسكنها الخرابُ. سمعتُ في بعضها بكاءً ممضّاً لفراق أبٍ أو ابنٍ أُخذ عنوةً واقتِيد إلى بلاد الشام بالقطار، وبأوامر فخري باشا. هالني مقدار خلوّ المدينة من أهلها. معظمُ البيوت التي مررتُ بها كانت تصفِّرُ فيها الرياحُ، والحزنُ عالقٌ على جدرانها ويسكنُ أبوابها. فرغت المدينة وأصبحت مهجورةً بعد أن كانت عامرةً بالإيمان والسَّكينة والدَّعة والنَّاس والخيرات. هل يُعقل أن تتحوّل مدينة رسول الله من حالٍ بهيجة إلى حال مفزعة كهذه؟

كانت الشمسُ ترسلُ أشعّتها فتغمرُ الحارات شبه الفارغة بالضوء والدفء. حينما وصلتُ إلى حوش القشاشي لمحتُ على باب أحد بيوته المهجورة طفلةً باكيةً وقد اختلطت دموعها بمخاطها، فانقبض

قلبي. فكّرتُ أنْ أمدّ إليها يد العون، فقد ذكّرتني بما حدث لي منذ سنتين عندما خُطِفتُ من أُمّي. اقتربتُ منها وقلتُ لها: "ما يبكيكِ؟ أين أبوكِ، وأمُّكِ؟".

نظرتْ إلى البيت الفارغ وقدْ زادَ بكاؤها، كأنَّها تقول لي: لا أحدَ هُنا. من المؤكّد أنَّ والديها قُبض عليهما تمهيداً لتهجيرهما. سمعنا الكثير من هذه القصص المؤلمة. ذكر لي سيّدي عبد الرحمن أنَّ امرأةً تعيش في حوش مناع وضعتْ حملها، فخرج زوجُها ليحضر إليها شيئاً من الطعام لتأكله، فوجده الجنود، وكبّلوا يديه، وأرسلوه إلى محطّة القطار تمهيداً لنفيه إلى بلاد الشام، وحينما تأخّر الزوج على امرأته، أصابها القلقُ، فتحاملتْ على أوجاعها، وتركتْ وليدها وخرجتْ تبحثُ عنه، فلقيها الجنودُ وأخذوها إلى محطّة القطار، ولم يستجيبوا لرجائها وبكائها لتحضر وليدها الذي وُلِدَ منذ ساعاتٍ قليلةٍ ليكونَ معها. عندما سمعتُ القصّة التي قالها سيّدي عبد الرحمن المدني في تلك الليلة، مسّت هذه القصّة شيئاً من نفسي، وحرّكتْ أحزاني، فقضيتُ الليلَ بكامله باكياً في حجرتي. وخطرَ لي خاطرٌ ما: سأطلبُ من سيّدي عبد الرحمن المدني أنْ نأخذها برفقتنا إلى مكّة حتّى لو رفض ذلك، مع أنّني أعتقدُ أنّه لنْ يرفض عملاً إنسانيّاً كهذا، وإذا امتنع عن تقديم يد العون إلى هذه الطفلة المسكينة، فلن أدعها بمفردها هكذا عرضةً للأخطارِ في مثل هذا الانفلات المرعب مهما كلّفني الثمن. بصعوبةٍ، أقنعتها أن تلبث ساكنة داخل البيت ريثما أرجعُ، ثمّ أُعيدها إلى أهلها. لمْ تجبني إلّا بالبكاء، فقضيتُ معها وقتاً طويلاً طالباً منها السكون والهدوء ريثما أعود. أدخلتها إلى إحدى

حجرات البيت الذي كان يبدو منهوباً حتَّى من أثاثه وأبوابه ونوافذه وكل ما فيه من أغراضٍ! أجلستها على الأرض العارية، وطلبتُ منها الصمت والسكون ريثما أعود. حينما هدأ بالُها قليلاً، سألتها عن اسمها، فقالت إنَّها تُدعى ليلى.

خرجتُ من البيت المهجور متَّجهاً إلى مكتبة عارف حكمت، ودعوتُ الله أن أجد إبراهيم أفندي في المكتبة لأسلِّمه المخطوطات ثم أعودُ إلى الطفلة ونعود معاً إلى بيت سيِّدي عبد الرحمن المدني.

٢٥

محطّة القطارِ – بابُ العنبريّةِ

وصلتُ إلى المكتبة فوجدتُها مقفلةً. كان إبراهيم أفندي يفتحُ أبوابها بعد الفجر مباشرة كما العادة، ولكنها اليوم لا تزال مغلقةً رغم أن الوقت كان ضحى.

لبثت واقفاً بالقرب من باب المكتبة منتظراً، أُمنّي نفسي أنّه سيفتحها بعد وقت يسير. لا أريدُ أن أتأخرَ منتظراً هنا، فلديَّ عملٌ كثيرٌ اليوم، إذ سنحزم حقائبنا استعداداً للسفر إلى جدّة. وشعرتُ بقلبي يدقُّ بعنفٍ حينما تذكّرت الطفلة الصغيرة ليلى التي تركتها تنتظرني في بيتِ أهلها المهجور. بدأتُ أشعرُ بالخوف عليها، ودعوتُ الله أن تظلَّ متماسكةً، فلا تبكي، ولا تغامر بالخروج ريثما أعودُ. بدتْ حركة الناس حولي أقل من المعتاد. ربما كنتُ الشخص الوحيد الذي يقف أمام بابٍ مقفلٍ في هذا الصباح. مضى وقتٌ طويلٌ لمْ أرَ فيه رجلاً أو امرأةً تسيرُ في الشارع. حتّى أبواب الحرمِ النبويِّ كانت مفتوحةً على مصراعيها ولكنْ لا أحدَ يخرجُ أو يدخَلُ منها سوى مَن عُهد لهم تنظيف الحرم وساحاته المحيطة به. شددتُ حقيبة

المخطوطات على صدري خوفاً عليها. لا يبدو أنّني سوف أستمرُّ طويلاً في الانتظار. مَرّ من حولي عددٌ من الجنود. كانوا يسيرون في الطرقات والشوارع متمهّلين. يوقفون هذا الشخص وذاك. بعض المارّة كانوا يهربون حينما تقع أعينهم على الجنود، وآخرون يتوارون عن الأنظار تحت جدارٍ متهدّم، أو يلوذون ببيتٍ مهجورٍ ريثما يمرون في طريقهم. شعرتُ بالخوفَ من أنْ يمرَّ جنودٌ بالقرب من البيت الذي تختبئ فيه الطفلةُ ليلى، فيشعرون بوجودها، فيحدث ما لا يحمد عقباه.

في غمرة انثيال هذه التفاصيل في عقلي، شعرتُ بيد خشنة تمسك بكتفي الأيمن. سمعتُ شخصاً من ورائي يرطن بكلماتَ غير مفهومة، وحينما التفتُّ لأرى مَن يكون، لمحتُ أربعة جنود يتحدّثون معي لكنّني لم أفهمْ ما يقولون، وحينما زاد كلامهم غير المفهوم، أشرتُ بيدي إلى باب المكتبة المغلقة. كانوا يتبادلون الحديث مع بعضهم بعضاً ويشيرون إليه بأصابعهم، وينظرون إلي بين فينةٍ وأخرى. شعرتُ بالخوف يجتاح جسدي، وسال منّي العرقُ. ارتفعتْ نبرة كلماتهم. بدا كأنّهم يتناقشون عنّي. فكّرتُ في الهربِ منهم. سأتركُ المخطوطات أمام باب المكتبة وأطلق ساقيَّ للريح. أخذتْ نبضاتُ قلبي تتسارع. دعوتُ الله في سرّي أنْ يذهبوا في طريقهم ويدعوني في شأني. اقتربوا منّي أكثر، فزاد هلعي. فجأةً أمسكوا بي، وحينما حاولتُ الإفلاتَ منهم أوثقوا يديَّ. سقطتْ منّي المخطوطات، فتناولها أحدهم وأمسك بها بيده اليمنى. سمعتُ منهم كلماتٍ غريبةً مثل: "سفر برلك، سفر برلك".

حاولتُ التملُّص منهم لكنَّ جنديّاً صفعني على وجهي، فكدتُ أقعُ على الأرض من قوّة صفعته. لا! هذا لن يحدث لي مرّة أخرى! ماذا يريد منّي هؤلاء الوحوش؟ هل سأختطف مرّةً ثانيةً كما خُطِفتُ سابقاً في براري مكّة؟

صرختُ من الرعب حينما تذكَّرتُ ما حدث لي منذ سنتين. كنتُ أقول لهم: "ماذا تريدون منّي؟ دعوني وشأني".

لكنّهم لم يفهموا شيئاً ممّا أقول. لم يكونوا يجيبونني إلّا صارخين في وجهي بكلمتين: "سفر برلك... سفر برلك".

سمعتُ سيّدي يذكرُ هاتين الكلمتين حينما كان يتحدَّث مع أصحابه، ولكنّه كان يقول معها كلاماً مفهوماً من قبيل: "هم يخطفون النّاس، ويرسلونهم إلى الشام في سفر برلك".

حينما تذكَّرتُ هذا الكلمات، وربطتُ بينها وبين ما تعنيه، أدركتُ مدى حظّي التعيس. يا إلهي!

هل سيكون مصيري مصير سكّان أهل المدينة: التهجير الإجباري إلى الشام بالقطار. تذكّرتُ رؤيتي القطار قبيل دخولي المدينة حينما كنتُ مأسوراً كعبدٍ في تلك القافلة السيئة الذكر. كان يسير كثعبانٍ ضخم ينفثُ من فَمه الدخان الأسود. أمسك بي الجنود جيداً، ثمّ ساقوني عبر دروب وشوارع المدينة محصوراً بين أجسادهم الضخمة ورائحتهم النتنة. كنتُ أنظرُ إليهم زائغَ النظرات، ولكنّهم لم يكونوا يحفلون بي، ولا باحتجاجاتي. ساروا بي مخفوراً إلى "الأستسيون"، إلى محطّة القطار. بعد أنْ سرنا قليلاً لمحته. كانَ رابضاً، ومن نوافذه رأيتُ وجوهَ النّاس المكفهرة. رأيتُ أصابعهم

تتشبثُ بالنوافذ وهم ينظرون فيما حولهم. سلّمني الجنود الأربعة لجندي آخر كان يقفُ على باب القطار، وبيده أوراقٌ يسجِّلُ فيها أسماء مَن يدخلون إلى العربات التي بدت مثل الصناديق. سلّموني الكيس الجلدي الذي كانت فيه المخطوطات. تذكّرتُ سيّدي عبد الرحمن المدني، فشعرتُ بغصّةٍ في حنجرتي. أخرجني من شرودي الجنديُّ الواقفُ على باب القطار وهو يسألني عن اسمي بلهجة مكسّرةٍ فلم أجبْ. كنتُ ألتفتُ ورائي لعلّي أجدُّ مخرجاً من هذا الموقف الصعب. نهرني الجنديُّ بشدّة، ورفع قبضته أمام وجهي مهدِّداً، وسألني عنِ اسمي. فقلتُ له وأنا أكادُ أبكي: "ذيب".

- ذيب؟ اسمكَ ذيب؟

- نعم.

دوّن اسمي في الكشف، ثمّ طلب منّي الصعود إلى القطار.

٢٦

داخلُ القطارِ – بابُ العنبريّةِ – ١

أدركتُ مصيري الأسود وحظّي العاثر حينما دخلتُ إلى جوف القطار. رأيتُ فيه ما أذهلني. كان هناك بشرٌ مثل الأشباح، هزيلو الأجساد، مجرّد جلد على عظم، كأنّهم موتى خرجوا من قبورهم بعد دفنهم بأيام! عيونهم زائغة، ثيابهم ممزّقة، روائح كريهة تنتشر في كل مكان. لم ينظر نحوي أيُّ أحدٍ منهم، فقد بدا أنَّ كلَّ فردٍ منهم مشغولٌ بنفسه. ترى رجالاً صامتينَ ونساءً يبكين بلا توقُّف، أطفالاً يصرخون، وتتداخل أصوات بكائهم ولا يُلقي لهم أحدٌ أيَّ انتباه. صرخاتٌ، وبكاءٌ، وأنينٌ، وروائحُ خانقةٌ تزكمُ الأنوفَ. بصعوبةٍ، وجدتُ لي مكاناً لأُلقي فيه جسدي المتعب والمرتعب. كان يقعُ بالقرب من حجرة صغيرة تشبه صندوقاً ضيّقَ المساحةِ. جلستُ بالقرب منها، فقد كانت قدماي متعبتين بسبب طول الوقوف. كان التزاحمُ بين هؤلاء القوم لا يدعُ للمرءِ مجالاً أن يستنشقَ نسمةَ هواءٍ نقيّة. حالما جلستُ تصاعدتْ تلك الرائحة الكريهة، فوضعتُ إصبعيّ السبابة والإبهام على فتحتي أنفي. كنتُ أجلسُ بجانب شابٌّ يقاربني

في السن. عرفتُ منه أنَّ القطار متوقِّفٌ منذُ يومين. وكان سبب توقُّفه بقاء عربتين فارغتين في انتظارِ أن تمتلئا بالنَّاس لكي يُسمح له بمغادرة المحطَّة. تلك الرائحةُ الكريهةُ جعلتني مخنوقاً ولا أكاد أتنفَّسُ. سألته عن سببها، فقال لي الشاب إنَّ هذه رائحةُ غائطِ الناس الذي تراكَمَ في الحمَّام الصغير المُلحق بالقطار، وأشار بيده إلى تلك الحجرة التي كنتُ أستندُ عليها بظهري، والتي تشبه الصندوق. قال لي بصوتٍ خفيضٍ: "عندما طالبَ هؤلاء المساكين الراكبون في القطار بالسماحَ لهم باستخدام الحمَّامات الخاصَّة بالمحطَّة وافقَ القيِّمون على القطار في بداية الأمر، ولكنَّهم منعوا ذلك بعد أن حاول بعض النَّاس الهربَ أثناء ذهابهم لقضاء حاجتهم، فأجبروا الركابَ على استخدام حمَّامِ القطار الذي امتلأ بالبول والغائط عقاباً لهم!".

دعوتُ الله في نفسي، وبقيتْ لي ذرَّةٌ من أملٍ ضئيلٍ أنْ يشعرَ سيِّدي عبد الرحمن المدني بغيابي، فيبحث عنِّي، ويأتي إلى المحطَّة هنا، وينقذني من مصيري المجهول قبل فوات الأوان. وضعتُ وجهي بين راحتي كفيَّ وأخذتُ أبكي على نفسي وعلى أقداري المشؤومة، فما إنْ تصفوَ لي الأيامُ، حتَّى تدلهمَّ بي الخطوبُ والمصائبُ، وتحيطُ بي الظلماتُ حتَّى لا أكاد أستبين طريقي. ولأنَّ بكائي طال، فقد وصحوتُ من نومي فزعاً بعد أن شعرتُ كأنَّ الأرضَ تهتزُّ من تحتي. وقفتُ على قدميَّ وأمسكتُ بعمودٍ بالقرب منِّي يصل بين أرضيَّة القطار وسقفه. نظرتُ إلى الخارج لأرى الشمس وقد اصفرَّتْ وأذنتْ للمغيبِ. تحرّك القطارُ ببطءٍ أوَّل الأمر مُطلقاً صفاراتٍ متواليةً مدويَّةً. نظرتُ إلى الأبواب: كانت مقفلةً! جلتُ ببصري ناظراً إلى

جوف القطار المعتم إلّا من ضوءٍ شحيحٍ آتٍ من صفرةِ نورِ الشمسِ الموشكةِ على الغياب. لمحتُ بين كلِّ عربة وأخرى وجودَ فاصلٍ حديديٍّ يقفُ فيه جنودٌ مدجَّجون بالسلاح وهم ينظرون إلينا شزراً والقسوة باديةٌ على وجوههم الجامدة الملامح. يحملون أسلحتهم وقد بدوا على أهبة الاستعداد لإطلاق النار على مَن تسوِّلُ له نفسه الإتيان بأدنى حركة. زاد القطارُ سرعته وتزايد وجيبُ قلبي. ألقيتُ نظرةً أخيرةً على المحطّة، فرأيتُ حجراتٍ وغرفَ المحطّة تتباعد. كانت الشمسُ تدنو من المغيب، وخُيّل إليّ أنني رأيتُ سيّدي عبد الرحمن المدني ينظرُ إلى القطار الذي بدأ الانطلاق. لا، لمْ يُخيَّل إليّ، فقد كانَ بذاته واقفاً في المحطّة يحرّكُ رأسه يميناً ويساراً كأنَّه يبحثُ عنّي. رأيتُه يتقدَّم نحو ثلةٍ من الجنود وهو يتكلَّم معهم، فزجروه بدفعه بأكفِّهم الغليظة. رفعوا بنادقهم في وجهه. صحتُ عليه من النافذة باكياً: "سيّدي عبد الرحمن، أنَا هُنا. انظر لي، سيّدي عبد الرحمن".

لمحته يلتفتُ نحوَ القطار محاولاً النظرَ فيه ليتعرّفَ على مكان صوتي الذي بدا يتصاعد منادياً عليه بأقصى ما أستطيع من قوّة. وعندما رفعتُ يدي اليُمنى مؤشّراً له، شعرتُ بشيءٍ صلبٍ يقعُ على مؤخّرة جمجمتي، وحينما استدرتُ مترنّحاً لمحتُ جنديّاً يسدّدُ إلى ضربةً أخرى بعقبِ بندقيته الخشبي على ذقني. اختلَّ توازني، وشعرتُ بجسدي يفقد ثقله، والأرض تدور بي، فسقطتُ مثل جثّةٍ هامدةٍ على أرضيّةِ القطارِ المبللةِ بالبولِ القادمِ من الحمّام القريب من مكاني.

٢٧

داخلُ القطارِ – بابُ العنبريّةِ – ٢

أيقظني من غيبوبتي صوتُ صفّارةِ القطارِ. مسحتُ وجهي بباطنِ كفّي. لمستُ بإصبعي كدمةً على ذقني، فشعرتُ بالألم. فقدتُ جزءاً من نابِ سنّي الأعلى. نظرتُ حولي: لا شيء سوى الظَلام، وأشباح مكوّمة حول بعضها بعضاً كأنّهم موتى لا أحياء. لبثتُ محملقاً في الفراغ والظلام. الروائحُ الكريهةُ أصبحتْ أقوى من ذي قبل. في كلِّ مدة وأخرى، ألمحُ شبحاً يستيقظُ من مكانٍ ما من القطار، فيأتي ساحباً قدميه بصعوبةٍ إلى الحمَّام بقربي، يدخلُ، فأسمعُ أصواتَ قضائه حاجته، فأختنقُ أكثر بالروائح الكَريهة. يعودُ إلى مكانه وهو يئن. يلبثُ قليلاً يشتكي لنفسه ولمَن حوله بصوتٍ مبحوحٍ من آلام بطنه، أو ظهره، أو قدميه. لا أحدَ يسمعُ له أو يبادلَه الحديثَ. التفتُ إلى جاري الشاب، فوجدته مكوّماً على نفسه، ولا أعلمُ هل كان نائماً أم التزمَ الصمت والسكون. استبدَّتْ بي رغبةٌ لا تُقاوم في الكلام. سأفقدُ عقلي إنْ لمْ أحظَ بالحديثِ مع أحد... أيّ أحدٍ. خطر لي أنْ أوقظَ جاري، فنتبادل الحديث. أريدُ أنْ أَفهمَ أكثر عن الوضع الذي نحنُ

فيه. حالما مددتُ يدي لأوقظه، سمعتُ ضجيجاً مثل الصوت الذي يصدر عندما تضرب بحجرٍ على قطعةٍ من معدنٍ فارغة. كان مزعجاً. تململ بعضُ ركاب القطار، وبعضهم استيقظ من رقدته. لمحتُ رجلاً مثل شبح قادم من مقدِّمة القطار، وبيده شيءٌ مثل سطلٍ كبيرٍ. رأيته يتوقَّف قليلاً عند كلِّ راكب. يمدُّ يده داخل السطل، فيستخرجُ منه شيئاً ما، ويناوله للراكب. يمشي خطوةً ضارباً على السطل بقضيبٍ من حديد، ويقول بصوتٍ كالرعد: "عَشاء... عَشاء... عَشاء!".

يستيقظُ جاري الشابَ من رقدته. أنظرُ إليه متسائلاً عمَّا يحدثُ فيقول لي: "يقدِّمون العَشاء إلى الركابِ".

يقتربُ الرجلُ الذي يحملُ السطلَ، فيزدادُ الصوتُ حدَّةً. مرَّ بالقرب من جاري، فمدَّ إليه الأخير يده اليمنى. أدخل الرجلُ يده في السطل، وانتشل شيئاً ووضعه في يدِ جاري. اقترب منِّي، فمددتُ يدي، فسكبَ فيها شيئاً لزجاً، حينما شممتُه واستطعمتُه وجدته تمر عجوة. كنتُ جائعاً، إذ لم يدخل بطني أيُّ طعامٍ منذُ عشاء البارحة. التهمتُ حبَّات التمر، فبقيت جائعاً. استمرَّ الرجلُ يطرقُ السطلَ حتَّى انتهى من جميع العربات. بعد قليلٍ جاء رجلٌ آخر بيده سطلٌ وينادي: "مَاء... مَاء... مَاء!".

حينما مرّ بجانبي قلتُ له: "ماء".

أدخل يده في السطل وأخرج منه كوباً معدنيّاً فيه قليلٌ من الماء. ناولني إيَّاه فشربته. كان دافئاً، وفيه ملوحةٌ، ولكنَّه مع الظمأ والجوع يصبحُ ماءً زلالاً. بعد تناول العَشاء والمَاء، استيقظ ركابُ القطار دفعةً واحدةً، وكثرت زياراتهم إلى الحمام، فازدادت الروائح الكريهة،

وعمّت المكان. لم يتأفف أحدٌ. يبدو أنّهم تعوّدوا هذه الروائح وهذا الزحام. أدركتُ أنَّ اختياري هذا المكان للجلوس كان خطأً كبيراً. لكنْ لمْ يكنْ لديَّ أيُّ خيارٍ، فهو المكان الوحيد الذي كان متاحاً لي.

قطع حبلَ أفكاري جاري الشابُّ وقال: "سيتوقّف القطارُ في تبوك".

– في تبوك؟

– نعم.

– لماذا؟

– ليبدّل بعض عرباته، وليتزوّد بالمؤن، وليدفن الموتى؟

– الموتى؟!

– نعم، مَن يمتْ في القطار، يُدفن في تبوك.

– هل سنخرج منه؟

– ربما يسمحون لنا بالخروج للذهاب إلى مباني المحطّة والمقاهي التي حولها لمن أرادَ الاستحمام أو تبديل ملابسه، أو شراء أكل أو ما شابه.

– ومَن أخبرك بهذا؟ هل سبق أنْ سافرتَ على هذا القطار؟

– لا... هذه أوّل مرّة في حياتي أسافرُ فيها بالقطار لأنَّ الجنود امسكوني منذ يومين وأنا خارجٌ من بيتي. قيّدوا يديَّ وذهبوا بي من الفور إلى المحطّة.

التقط أنفاسه، وقال: "أخبرني الرجل الذي يقدّم الماءَ بعد أن أعطيته أمس في الأستسيون خمسة ريالات مجيديّة. قال لي كلَّ ما سيحدث في الرحلة من بدايتها إلى نهايتها!".

– هل سيتركوننا في تبوك نذهب إلى حيث نشاء؟

– لا... سيكون لك وقتٌ محددٌ في المحطّة، وفي أماكن معروفة لهم، وستكون تحت حراسةٍ مشدَّدة.

تحسَّستُ جيبي بأطرافِ أصابعي لأتأكَّد من الريالات المجيدية المئة والأربعين (رواتبي الشهريَّة التي كنت أتسلَّمها من سيِّدي عبد الرحمن المدني طوال سنة ونصف). لمستُها، وأخرجتُ يدي وشعورٌ بالارتياح ينتابني. سألت جاري: "ومتى سنصل إلى تبوك؟".

– ربما مع الفجر، أو بعده بقليل.

– وكم سيأخذُ القطارُ وقتاً ليصلَ إلى ...؟

لم أعرفْ حتَّى الآن المحطّة النهائيَّة للقطار. أجابني جاري الشاب: "إلى تبوك؟".

– لا، أقصدُ محطته الأخيرة؟

– دمشق... هي المحطّة النهائيَّة. إذا كان طريق القطار سالماً ولا يحتاج إلى صيانة، فإنَّنا سنكون هناك خلال ثلاثة أيام فقط.

– وهل سيتركوننا هناك؟

– نعم، ستكون حُرّاً طليقاً حالما يصل القطار إلى محطّة الحجاز في دمشق.

ثم شملنا الصمت. حاولتُ مواصلة التحدُّث معه لوقتٍ أطول، ولكنَّه توسَّد ذراعه وسمعتُ شخيرَه يتصاعدُ!

لبثتُ ساهماً مفكراً في كلامه. ارتاحتْ نفسي قليلاً عندما قال لي: "في دمشق، سنكونُ أحراراً".

وبدأتُ أشعرُ بالخلاص من هذا العذاب يقترب رويداً رويداً.

٢٨

تبوك – محطّة القطارِ

مع فجر اليوم التالي، تصاعدتْ صفارةُ القطارِ، وهدأت سرعته بالتدريج. اقتربنا من محطّة تبوك التي كانت محطّة رئيسةً إجباريَّةً لتبديل العربات بأخرى، ولتعبئة مخازنه بالمؤن والماء، ودفن الموتى الذين توفاهم الله أثناء سير القطار. مرّ بجانبنا السقَّاءُ الذي يسقي ركاب القطار، فاستمهله جاري الشاب. مدَّ يده في جيبه ونفحه مبلغاً من المال، ثمَّ أشار بسبابته نحوي وأرجعها موجَّهةً إلى صدره. تناول منه السقَّاءُ المالَ وهو يهزُّ رأسه. سألتُ جاري: "لماذا أعطيته مالاً؟".

– ليسهّل أمرَ خروجنا معاً إلى المحطّة دون أيِّ مضايقات أو ملاحقات.

شكرته مبيّناً النيَّة أنْ أسلِّمه المبلغ الذي دفعه نيابةً عني. تباطأت سرعت القطار وتصاعدت صفارته حينما اقترب من محطّة تبوك. أخذ الجنود المرافقون للركاب أهبة الاستعداد لنزول مَن يرغب من الركاب. أمسكوا بأسلحتهم وهم يدورون بعيونهم التي احمرَّت في الركاب. سمعتُ صوتَ صريرِ توقُّف عجلات القطار. تأرجح

قليلاً قبل أن يتوقّف تماماً. سرتْ حركة بين الركاب، ووقف جنديٌّ عند كلّ باب للخروج. لمح جاري السقّاء، فأشار له بيده. دنا منّا، ثمّ طلب أن نتبعه إلى أحد بوابات الخروج. اقتربنا من الباب الذي كان فارغاً من نزول الركاب. تركنا السقّاء وذهب ليتحدّث مع الجنديّ. تبادلا الابتسامات في ما بينهما. مدّ السقّاءُ يده في جيبه، وأخرج شيئاً ما وأقحمه في يد الجندي الواقف على الباب. أشار لنا السقّاءُ بالاقتراب، فاقتربنا. أبعد الجنديُّ جسده الضخم عن الباب، فخرجتُ مع جاري. نزلنا خمس درجات حديديّة، وهبطنا بأرجلنا إلى الأرض. أوّل عملٍ فعلته أنّني عبّأتُ رئتيّ من الهواء النقيّ والجاف. شعرتُ بدوخة بسيطةٍ ولكنّني تماسكتُ. أمسك جاري الشاب بيدي، ودلفنا معاً مبنى المحطّة.

كانت محطّة تبوك أصغر حجماً من محطّة المدينة. كانت سيئة المنظر، قليلة النظافة، ومبانيها متفرّقة. تبدو كأنّها بُنيتْ على عجلٍ. في الساحة الواسعة الواقعة في منتصف مباني المحطّة، لمحنا ثكنةً من الجنود تأخذُ مكانها بعد نزولنا في المحطّة. لمحتُ أربع جثثٍ لموتى يُنزلون من القطار. كان بينهم طفلان أسلموا أرواحهم لبارئهم أثناء سير القطار من المدينة حتّى هنا. حملها بعضُ ركّاب القطار برفقة ثُلّةٍ من الجنود واتّجهوا بها إلى المقبرة القريبة من المحطّة للصلاة عليها ودفنها.

تنحنح جاري، وقال مائلاً برأسه نحوي: "كلّما دفعتَ مزيداً من المال، حظيتَ بالكثير من التغاضي لتأخذ راحتك أكثر في المحطّة، فلا يضايقك جنديٌّ، ولا يطلب منك البقاء أو العودة السريعة إلى

القطار قبل انقضاء أشغالك وفراغك منها".

هززتُ رأسي وقد فهمت كيف تسير بعض الأمور هنا. ليكن؛ أهم ما يشغل بالي الآن أن اشتري ثياباً جديدةً، وأنْ أستحمَّ، فقد فاحت رائحةٌ غيرُ مستحبَّةٍ من جسدي واتِّساخ ملابسي بالبول المتسرِّب من حمَّام القطار الطافح بالقاذورات والمخلَّفات البشريَّة. أرغبُ في قضاء حاجتي في حمَّامٍ نظيفٍ دون أن يزعجني شخصٌ بطَرقِ الباب بشكل متلاحق يحثُّني على الخروج. سأتناول طعاماً يسدُّ جوعي، وسأكونُ كريماً مع جاري الذي وقف بجانبي كثيراً وسهَّل طريقة مغادرتي القطار، وساعدني على فهم ما يدور من حولي.

سألني جاري: "ماذا تريد أن تفعل؟".

أجبته دون تفكير: "أريد أن أشتري ثياباً جديدةً، فأنا لا أملكُ إلّا ثيابي التي على جسدي، وأرغبُ أن أستحمَّ، ثمَّ أتناول طعاماً ساخناً".

قلتُ كلَّ ما أفكرُ فيه دفعةً واحدةً كأنَّني طفلٌ يُملي على أبيه كلَّ ما يرغب في شرائه من ألعاب، فابتسم جاري الشاب، وأشار لي أن أتبعه.

لمحنا بعضَ المحلات التي تبيعُ كلَّ شيءٍ من ملابسَ ومأكولاتٍ وأوانٍ خزفيَّةٍ ومعدنيَّةٍ وأحذيةٍ ومفارش سدو وزيوتٍ وعسلٍ والكثير من الأشياء التي رُصَّت كيفما اتفق على طاولات خشبيَّة. اشتريتُ ثوباً وحذاءً جديداً وملابسَ داخليَّةً. سألتُ البائعَ عن الثمن؟ فقال خمسة ريالات مجيديَّة. شعرتُ بالارتياح أنَّ الريالات المجيديَّة يُتعامل بها هنا. نفحته المبلغ. التفتُّ إلى جاري، فرأيته يبتاع زيت زيتون، والبائع

يحلفُ له بأغلظ الايمان أنَّه زيتُ زيتون حقيقيٌّ مقدسيٌّ نقيٌّ. اشترى جاري منه زيت الزيتون الذي كان في إناء معدني محكم الإغلاق. التفتَ نحوي وقلت له: ألا يوجد مكانٌ هنا للراحة؟ سألنا البائعَ، فدلَّنا على بضعة مبانٍ مبنية من الطين، مشيَّدة بشكلٍ سيئ، وتبدو غير متينة، وتقع إلى جهة الغرب من المحطَّة، ويحيط بها حوشٌ واسعٌ مبنيٌّ من الآجر والطين. ذهبنا إلى هناك واكترينا حجرةً ضيقة على أرضيتها فُرشت مفارش قد حال لونها وبهت، ولكنَّها مقارنةً بعربة القطار كانت أشبه بقصرٍ. كان ملحقاً بها حمَّام يبعد عنها قليلاً جهة الشرق. عبَّأتُ سطلاً كبيراً من الماء من قربة كبيرة وضعت على دكَّة مبنيَّة من حجارة مرصوصةٍ. عبَّأتُ السطلَ، ثمَّ ذهبتُ إلى بيت الراحة لأستحمَّ وأبدِّلَ ملابسي. خرجنا بعد الاستحمام نبحثُ عمَّا نأكله، فوجدنا رجلاً من البادية يلبسُ ثياباً ملوَّنة وشعر رأسه مجدول إلى ضفيرتين تتدليان من فوق كتفيه الأيمن والأيسر، ولديه تنورٌ يبيعُ لحماً مشويّاً مع قطعٍ من رغيف الذرة. اشترينا منه حاجتنا وعدنا إلى الحجرة التي اكتريناها. تناولنا طعامنا، ومن شدَّة التعب والنَّصب لم نقدرْ على غسل أيدينا، فنام كلٌّ واحدٍ منا مكانه.

٢٩

محطّةُ القطارِ – تبوك – ٢

لم أكدْ أغمض عينيّ حتّى شعرتُ بشيءٍ يهزُّ كتفي. تجاهلته وقلبت جسدي إلى الجهة الأخرى وقد ثقل رأسي بالنوم، ولكنّني صحوتُ على صوت جاري ورفيقي في السفر وهو يحثُّني على سرعة الذهاب إلى المحطّة استعداداً للسفر. تجاهلتُ كلامه، فقد كنتُ راغباً في النوم، ولكنّه قال لي بصوتٍ عالٍ: "انهض! أرجوك، فالجنودُ يجوبون المكان مهدّدين مَن يتأخّرَ عن الذهابِ بتقييد يديه ورجليه، فيكمل بقيّة الطريق وهو على هذه الحال!".

نهضتُ من رقدتي متكاسلاً، وحالما خرجنا من حجرتنا، وجدنا جنديّاً ينادي على اسمينا بصوتٍ غاضبٍ: "هل أنتما المدعو ذيب، والمدعو عابد؟".

أجبناه معاً: "نعم".

سألنا بصوتٍ عالٍ يدلُّ على نفاد صبره: "إذن، لِمَ تأخّرتما عن الذهاب للمحطّة؟ هل تعرفان مصيرَ مَن يفعل هذا الأمر؟".

استمرَّ الجنديُّ الغاضبُ في تقريعنا وصبَّ اللوم على رؤوسنا،

كان يرطنُ بلغة عربيّةٍ مكسَّرة، فما كان منّي إلّا أنْ أدخلتُ يدي في جيبي، وانتشلتُ منه خمسةَ ريالات مجيديَّة كانت كافيةً لإسكاته وتغير ملامح وجهه من الغضب إلى الابتسام! هكذا هو المال يبدِّل النفوس من حالٍ إلى حالٍ بلمح البصر. ابتسم جاري ابتسامةً واسعةً، فقد أدرك أنَّني عرفتُ ذلك الشيء الذي يفتح الأبواب المغلقة. طلب الجنديُّ منّا هذه المرّة بلطفٍ أن نسرعَ خطواتنا للحاق بالقطار الموشك على الانطلاق إلى الشام.

أسرعنا نحوَ القطار، وكنّا حريصين أنْ نبدِّل مكان جلوسنا بعيداً عن حمَّام القطار ذي الروائح الكريهة، حتَّى لو اضطررنا أنْ ندفعَ مالاً إضافيّاً. تحرَّك القطار من محطَّة تبوك قبيل الظهر بقليل. ارتفعت الشمسُ في كبد السماء وهو يسير على أديم الصحراء متَّجهاً شمالاً. بعد انطلاق القطار أهدى جاري قارورة زيت الزيتون التي اشتراها من محطَّة تبوك لأحد الركاب، وكان شيخاً كبيراً ضئيل الجسد، تبدو عليه سيماء المرض والفاقة، فتناولها منه الرجل العجوز دامعَ العينين. سألته: "هل هذا الرجل الطاعن في السن من أقربائك؟".

أجاب: "لا! هذا رجلٌ يبدو عليه المرض، وقد لاحظتُ هذا منذ انطلاقنا من محطَّة المدينة. لعلَّ زيتون الزيتون الذي أعطيته إيَّاه يكون ذا فائدة له في مرضه، ويعينه على مواصلة السفر".

طاب لي الحديث مع جاري وقد ارتحت له. بدا لي رجلاً نبيلاً يحبُّ الخير للنَّاس كما رأيت من تصرفاته وأفعاله، ويبدو أنَّه هو الآخر يكنُّ لي الشعور نفسه. غيَّرنا أماكننا الأولى بمواقع أكثر نظافة

وأقل ازدحاماً بعد أن دفعنا مقابل ذلك مالاً لأحد المسؤولين عن ركّاب القطار. تبادلنا الأحاديث، وعرفتُ منه أنّه من سكّان المدينة النبويّة، وأرمل. فقد ماتت زوجته أثناء النفاس، وولدت له بنتاً قبل أن تموت. لا أعرفُ لماذا خطر لي أنّه والد تلك الطفلة المذعورة التي وجدتها باكيةً أمام البيت المهجور، والتي اسمها ليلي. اختلج جسدي، ورحت أتأمّل ملامح وجهه باحثاً عن شبه محتمل بينه وبين الطفلة. وشعرتُ بالإشفاق عليه لو أنني أخبرته قصة تلك الطفلة، فتكون ابنته بالفعل، فيحدث له ما لا يُحمد عقباه. أرجأتُ الأمر إلى وقتٍ لاحقٍ حينما تكون الظروف مناسبة للحديث معه حول تلك الطفلة.

تحدثتُ مع جاري حتى مللنا الحديث. نمنا وصحونا مرّات عدة والقطار ينهب الأرض سائراً بلا توقف. لاحظتُ من النافذة أنّ رمال الصحراء وكثبانها وفراغها قد بدأت تضمحل وتتلاشى، وأصبحنا نرى الأرض تتبدّل إلى اللون الأخضر الزاهي، ويكثر العمران، فبين كلّ مدة وأخرى كنّا نمرُّ بقريةٍ، أو مدينةٍ، أو مجموعةٍ من البساتين الخضراء المتواصلة. زاد عددُ الناس، وتغيَّرت المباني، واتّسعت الشوارع. ورأينا بعضَ سيارات تسير على الدروب الممهدة هنا وهناك. كل شيء تغيَّر وأخذ يكتسي طابع التنوُّعِ والثراءِ والزحامِ.

حالما اقترب القطار من حدود الشام، حتّى خُفِّفت عنّا الرقابة، وتخلّى الجنودُ عن تحفُّظهم وتشديد الملاحظة على الركّاب. سرنا سويعاتٍ قليلةٍ حينما بدأ القطار يهدئ سرعته، ومن النظر عبر نوافذ

القطار، أصبحنا نسير داخل مدينة مترامية الأطراف، حسنة المباني، إذ كان بعضها يصل إلى أدوارٍ عالية. توقَّف القطار أمام مبنى بني اللون جميل الشكل، وله أبواب متلاصقة ذات أقواس عالية الارتفاع. سمعنا أحد الجنود يقول لنا: "هيا! انزلوا بهدوء. لقد وصلنا محطة الحجاز في دمشق".

٣٠

دمشقُ – محطّةُ الحجازِ

شعرتُ بلسعة برد حالما لامستْ قدماي الأرض. كان كلُّ ما حولي يبدو جديداً عليَّ: الوجوه والمكان والمباني والناس والروائح، حتّى الهواء. اقترب منّي حمّال وطلب منّي أن أسمح له بتقديم العون لي في حمل أغراضي، وحينما قلتُ له: "لا توجد لديَّ أيُّ أغراض للحمل!"، انصرف بعد أن حدجني بنظرة استنكار. بحثتُ عن جاري في القطار لكنّه اختفى في الزحام. بحثتُ عنه كثيراً في حدود المكان الذي كنتُ فيه. ناديتُ باسمه عالياً فلمْ أحظَ إلّا بنظرات الاستنكار من الناس حولي. وندمتُ أشدَّ الندم لكوني لم أخبره قصّة تلك الطفلة، فقد تكون ابنته، فيرجع إليها، وترتاح نفسي لمصيرها. أحسستُ بالوحشةِ والوحدة، فقد كان لي نعم الجار ورفيق السفر في تلك الرحلة المتعبة والمأساويّة.

مَن هذا الشخص؟ ولماذا اختفى بهذه الطريقة؟

لم أفهمْ لم ألحَّ عليَّ إحساسٌ أنّه كان مَلَكاً سخّره الله لي ليحميني من غوائل الطريق وأخطاره بفضل دعوات أُمّي. تعبتُ من التفكير،

وشعرتُ أنّني لا بدّ أنْ أخلدَ إلى الراحة، فالرحلة التي استمرّتْ ثلاثة أيام بلياليها كانت سيئةً ومرهقةً ومتعبةً، لكنّني لا أعرفُ إلى أين أذهب في هذه المدينة الكبيرة!

– خان، هل تبحثُ عن خانٍ للمبيت؟

سمعتُ صوتاً يأتي من ورائي يقول لي تلك الكلمات. التفتُّ نحوه وقلت له: "نعم! أريد مكاناً للمبيت".

– هل تريده قريباً من المحطّة أم نبحث عن خانٍ آخر داخل المدينة؟

فكّرتُ قليلاً ثم قلت له: "أُفضِّل أن يكون هنا بالقرب من المحطّة".

– هل لديك أغراضٌ تحتاج مَن يحملها؟

– لا.

– اتبعني.

سار أمامي فتبعته. مشينا بعيداً قليلاً عن المحطّة. توقّف أمام بناءٍ مكوّنٍ من ثلاثة طوابق، وله بوابة كبيرة مفتوحة على مصراعيها، ومعتم مدخلها قليلاً. قرأتُ اللوحة المثبّتة على المدخل فقرأتُ: "خان المحطّة".

أشار لي بالدخول فدخلتُ وراءه. وجدنا شابّاً كبيرَ الأذنين بشكلٍ لافتٍ يجلسُ على كرسيٍّ مرتفعٍ، وأمامه طاولةٌ كبيرةُ الحجم، فوقها دفترٌ يكتبُ فيه بقلم.

خلف ظهره كانت هناك قطعةٌ من خشبٍ مكسوّة بالقماش، ثُبّت فوقها مسامير، وفي كلِّ مسمار عُلّق فيه مفتاحٌ. حالما رآنا الشاب

ندلف من البوابة ونتقدَّم نحوه، ترك الكتابة في الدفتر، ونهض من مكانه مرحِّباً بنا. سألني: "هل تحتاجُ غرفةً للمبيت؟".

- نعم.

- هل أنتَ بمفردكَ؟

- نعم.

استدار الشابُّ نحو المكتب. أمسك القلم، وسألني عن اسمي ليدوِّنه في السجل.

- ذيب، اسمي ذيب.

كتب اسمي داخل السجل، ومدَّ يده إلى أحد المفاتيح المثبَّتة على اللوحة خلفه، وأخرج واحداً منها. سألته عن ثمن استئجار الحجرة؟ فقال لي: "ثلاثة ريالات رشاديَّة".

أُسقط في يدي، فأنَا لا أملك الريالات الرشاديَّة. قلتُ له: "ليس لديَّ ريالاتٌ رشاديَّةٌ بل مجيديَّة".

- لا تخفْ. نحنُ نقبل أيضاً الريالات المجيديَّة. في هذه الحالة، ستكون الأجرة لليلة الواحدة خمسة ريالات مجيديَّة.

سألني: "كم ستلبث هنا؟".

فكَّرتُ قليلاً وقلتُ له: "ربما ثلاثة أيام، وربما أكثر!".

هزّ رأسه، وطلب منِّي دفع مبلغ عشرين ريالاً مجيديّاً تحت الحساب. مددتُ يدي داخل جيبي، وأعطيته المبلغ المتَّفق عليه. نادى الشابُّ رجلاً أشيبَ الشعرِ كان يجلسُ في زاوية مظلمة. طلب منه أن يوصلني إلى حجرتي في الطابق الثالث. سرتُ مع الرجل الأشيب، فصعدنا سُلَّماً حجريّاً إلى الأعلى. فتح لي باب حجرتي،

وتمنّى لي إقامةً طيبةً. قبل أن يغادر الرجل الأشيب المكان، سألته عن كيفية الحصول على الطعام، فقال لي: "يوجد حول الفندق الكثير من المطابخ والأسواق التي تقدِّم الطعام".

سألني: "هل أنتَ جائعٌ؟"

– نعم.

– سأحضرُ لك طعاماً. ماذا تريد من طعام؟ هل تريد نوعاً محدداً؟

– ليس لديَّ أيُّ خيارات، ما تجده أحضِره!

مددتُ يدي إلى جيبي لأعطيه مالاً ولكنَّه رفض، وقال مبتسماً: "بعد أنْ أُحضرَ الطعام بإمكانك دفع قيمته".

هززتُ رأسي موافقاً. أقفل الرجل الأشيب الباب، وغادر المكان.

أدرتُ بصري في الحجرة. كانت أنيقةً ومرتبةً، ويتوسَّطها سريرٌ واسعٌ عليه أغطيةٌ نظيفةٌ بيضاء. لمحتُ نافذةً مغلقةً مسدلاً عليها ستارة من قماش أصفر اللون. فتحتُ النافذة، ومددتُ رأسي لأستطلعَ المكان، فوجدتُ النافذة تطلُّ على المحطّة وساحتها، وتكشفُ لي حركة الناس والقطار بكلِّ وضوح. شعرتُ بالارتياح قليلاً. أقفلتُ النافذة، وجلستُ على طرف السرير مفكِّراً في خطواتي المقبلة للعيش المؤقت في دمشق، هذه المدينة الكبيرة والمترامية الأطراف.

٣١

خانُ المحطّةِ – دمشق

بمرور الأيام، شعرتُ بالحنين الجارف إلى أمّي وخالي مانع الذي لا أعرفُ مصيره، ومكّة وصحاريها، وسيّدي الوجيه عبد الرحمن المدني. ما الذي حدث له في الأيامِ السابقة؟ هل تمكّن من السفر إلى جدّة ليلتحق بابنته وزوجها؟ وأُمّي! ماذا فعلت في غيابي؟ هل انتقلتِ إلى رحمة الله – تعالى – أم بقيت على قيد الحياة؟

كلٌّ هذه التساؤلات، بتوالي الأيام، تحوّلتْ إلى كتلةٍ ملتهبةٍ من الحنين والشوق للأهل والديار. وأصبحت أسئلة من نوع: ماذا سأفعل؟ هل سأعود أدراجي إلى المدينة المنوّرة مرّة أخرى؟ وإذا عدتُ، فهل سيعيدونني مَن يحكمون مدينة رسول الله إلى هُنا؟

ما هذا العبث والجنون الذي يحدث؟

وجدتُ نفسي أسبحُ في بحرٍ متلاطم الأمواج من الحيرة والتردُّد. لم يبقَ معي إلّا قليل من النقود مقتراً في صرفها في أضيق الحدود. محطّة الحجاز تلفظ كل أسبوع أو أسبوعين مُهجّرين ومنفيين من المدينة، تجد فيهم الرجل والمرأة، والشاب والشابة، والطفل

والطفلة. أُسرٌ بكاملها تمَّ تشتيتها في المنافي دون أدنى اعتبار لأرواحهم المعذَّبة. بعضهم يتوقّفون هنا، وبعضهم الآخر يفضّلون إكمال السير إلى إسطنبول عبر قطار الشرق ليبتعد بآلامه وخيباته وأحزانه أبعد مسافة ممكنة، ملتمساً لروحه السلوى والنسيان. كنتُ في الأيام السابقة فور استيقاظي من النوم أذهبُ إلى المحطّة فجراً. ألبثُ فيها متسقِّطاً أخبار المدينة المنوَّرة من القادمين من هناك. كلهم كانوا يقولون لي إنَّ الوضع قد ازداد سوءاً على سوءٍ، ولم يبقَ في المدينة إلّا أفراد الحامية العثمانيَّة الذين اضطرتهم المجاعة المتفشية هناك إلى أكل الجراد. وهرب معظم جنودها إلى جهاتٍ معلومةٍ وغيرِ معلومةٍ. فرغت مدينة الرسول من أهلها، ومن ساكنيها، ما عدا قلّة من الرجالِ والنساء العاجزين عن الحركة، الذين هم على شفير الموت. طلب منّي بعضُ القادمين من هناك ألا أغامر بالعودة لأنَّ عواقبها وخيمة، وقد تصل إلى الإعدام بالرصاص في باب العنبريَّة. وإنْ فكّرتَ في العودة برّاً، فقد تتعرّض للقتل من قُطّاع الطرق ولصوص القوافل الذين ازدادوا شراسةً بعدما شعروا أنَّ قبضة الولاة قد خفَّت وتلاشت بسبب تسارع الأحداث. لم يعدْ هناك أمانٌ، والصحارى ومدنها تحوَّلت إلى غابة من الوحوش المفترسة. نصحني الكثير بالبقاء هنا أو الاستمرار بالسفر إلى إسطنبول، أو أضنة، أو أزمير، فالحياة هناك ألطف وأفضل بكثير من بقيَّة الأماكن. لكنّني فضّلتُ البقاءَ في دمشق ريثما تنجلي الأمور. لا، لن أُسافرَ أبعد من هنا. سأدعُ أمر عودتي مفتوحاً حتّى إذا حان الوقت تكون المسافة أقرب والزمن أقصر للرجوع.

لبثتُ أستطلعُ الأخبار في محطّة الحجاز كلّ يوم حتّى أُصبتُ باليأس من تحسُّن الأحوال. وبدأتْ نقودي القليلة بالنَفاد. سأموتُ حتماً من الجوع إذا لم أجد عملاً أقي به نفسي شرّ الحاجة. عملتُ عتّالاً للقادمين من المدينة المنوَّرة، وعملتُ لهم دليلاً إلى الخان الذي أُقيم فيه؛ لا لشيءٍ إلّا لكي آنسَ بوجودهم حولي، وأشمّ فيهم رائحة الأهل والديار والذكريات. بعض الموسرين والأغنياء من الأسر المدنيّة توغّلوا وسكنوا داخل المدينة وفي أطرافها، وبعضهم واصلوا المسير إلى إسطنبول ومدن أخرى حولها. أمّا البسطاءُ ممّن هُم على شاكلتي، فلبثوا ينتقلون بين خانات محطّة الحجاز ومقاهيها وعيونهم مصوّبة نحو المحطّة لعلّهم يرون في الرحلة المقبلة من المدينة أخاً، أو أباً، أو أُمّاً، أو قريباً، أو صديقاً قادماً من هناك، فيهرعون إليه ويسألونه عن كلّ شيءٍ يخطرُ في بالهم، وقد امتلأت عيونهم بالدموع وقلوبهم بالحُرقةِ والفَقْدِ. عندما رأت السيّدة بهية هانم، مالكة الخان، أنّني قد زدتُ إيراد الخان بجلبي الزبائن من أهل المدينة، وبعد أنْ شكوتُ لها حالي، رقّت لي، وطلبتْ منّي جلبَ المزيد من الزبائن مع ضمان المبيت والوجبات المجانيّة. وافقتُ على ذلك، فلم يكن لديَّ أيُّ خيار. ووجدتُ أنّني بقبولي هذا العمل قد حصلتُ لنفسي فائدتين: الحصول على أخبار ما يحدث في المدينة لكي أُحددَ الوقت المناسب للعودة، وضمان ألا أموت جوعاً في أرضٍ غريبةٍ لا أعرفُ فيها أحداً.

كان كلُّ المدنيين يأتون إلى الشام وأعينهم لا تزال تنظر جنوباً وهم يتحرَّقون للعودة في حال كانت الظروف مواتيةً. يكون أيّاماً حتّى جفّت دموعهم، ووجدوا أنّ البكاءَ لم يعدْ مجدياً. رانتْ على

وجوههم سيماءُ الكآبة والحزن والضياع، فالتزموا الصمت، ولا شيء سواه!

مع مرور الأيام، قلّ عددُ الناس المهجّرين من المدينة إلى الشام حتّى لم يعدْ القطار يحمل سوى الجنود القادمين من هناك أو الذاهبين إلى المدينة مع حفنة من المسافرين الذين ينزلون في محطات أخرى قبل وصولهم المدينة. أكملت السيّدة بهية هانم معروفها معي، وعيّنتني نظيرَ أمانتي وحُسنَ خُلقي - كما كانت تردد - مساعداً للصبيّ الذي كان يستقبل الزبائن ولقيته في أوّل قدومي إلى هنا. وزّعنا العمل بيننا على ورديات، فيأتي هو من الصباح حتّى مغيب الشمس، وأتسلّم بدوري العمل من مغيب الشمس حتّى صباح اليوم التالي. حرصتُ أنْ أكونَ في الصباح والنهار في المحطّة أترقّبُ القادمين لأستمدَ الأخبار منهم، ولأقودهم في نهاية الأمر إلى خان المحطّة ومالكته السيّدة بهية هانم. سارت أيامي على هذه الوتيرة المتباطئة حتّى جاءت من المدينة أخبارٌ تحملُ طابعاً مختلفاً أدخل السرور إلى قلبي، مَا جعلني أستعدُّ للعودةِ إلى الديار في أقرب فرصة.

٣٢

قلعةُ الحاميةِ العثمانيّةِ (القشلة) – بالقربِ من بابِ العنبريّة

كانَ يسمعُ صوتَ صفيرِ الريح يعبرُ من خلال نافذة الحجرة شبه المفتوحة. شعرَ بالهواء البارد يمسُّ جسده الذي كان متدثّراً بالصوف لكنَّ برد المدينة المنوّرة كان شديداً هذا العام. نهض من مكتبه وترك الأوراق المتراكمة التي كان مكبّاً عليها. اقترب من النافذة وأحكم إغلاقها. عاد إلى مكتبه ليستكمل النظر في أوراقه، فاقتحم عليه الحجرة شخصان يرتديان الزيَّ العسكريَّ. نهضَ من مكتبه وانتشل مسدسه الذي كان داخل جرابه في الجانب الأيمن من جسده، محاولاً استخدامه، لكنّهما كانا أسرع منه. أمسكا يديه وانتزعا منه المسدس. طلبا منه الهدوء. قال له أحدهما وكان ضابطاً من ضباطه: "اسمعني جيداً، يا سيّدي، لم نعدْ نحكمُ هذا المكان؛ الحلفاءُ انتصروا، وبلادنا طلبت منّا إلقاءَ السلاحِ، و...!".

صرخ في وجهه: "وهل نترك مدينة رسول الله لهم؟ هل هذا يُعقل؟".

ابتسم الضابطُ الآخر وقال له: "أنت لديك أمرٌ بالاستسلام من

الصدر الأعظم وتسليم المدينة للحلفاء منذُ أكثر من خمسة أشهر، فلماذا لم تنفّذ أوامر الآستانة؟".

قال له فخري باشا ببرود: "أنا لا أتلقّى الأوامر من الصدر الأعظم أحمد عزت باشا، ولا من وزير العدل حيدر ملا. أنا أتلقّى الأوامر من الخليفة شخصيّاً...".

ابتسم الضابطان في وقتٍ واحدٍ، وقال له أحدهما: "لنكن واقعيين، يا سيّدي، فالدولة قد هُزمت شرَّ هزيمة على يد الحلفاء، ولم يعدْ من خليفةٍ بعد ذلك التاريخ".

نكّس فخري باشا بنظره، فقد كان يعرف ما قاله الضابط جيداً. شملهم الصمتُ جميعاً إلى أنْ قطعه بالقول لهما: "وماذا تريدان أنْ تفعلا بي؟".

– لا بدَّ لك من إصدار أمر للبقيّة الباقية من الجيش لترك المدينة فوراً. نحن لا نضمن ما الذي سيحدث في الأيام المقبلة إذا أصررت أن نبقى هنا. العواقب ستكون وخيمة بكل تأكيد.

– وإلى أين ستذهبان بي؟ وماذا سيقول عنّي الجنودُ الذين يأتمرون بأمري؟ ماذا أقول لعشرين ألف جنديٍّ وأنا أخرجُ من المدينة مخفوراً مثلَ لصٍّ!

تبادل الضابطان النظرات، وقال أعلاهما رتبة: "ستخرج مرفوع الرأس من هنا. أمّا إلى عدد الجنود الباقي، فأخشى القول، يا سيّدي، أنْ أخبرك إنّه لم يبقَ من العشرين ألفاً سوى ألفٍ وثمانين جنديّاً فقط! كلهم في حالة بدنيّةٍ ونفسيّةٍ في غاية السوء بسبب نقص الغذاء والدواء، فقد هرب الكثير منهم، وبعضهم فتكت بهم الأمراض،

والجنود العرب الذين كانوا في الحامية التحقوا بجيش الشريف".

التزم فخري باشا الصمت عاضّاً على شفته السفلى، ولم يجب!

بعد ثلاثة أيام من المفاوضات، وفرض الإقامة الجبريّة عليه، طلب منهما أن يودِّع المسجدَ النبويَّ، فوافقا من الفور. ذهب إليه فجراً. كان شبه خالٍ من الناس. أدَّى صلاة الفجر الأخيرة فيه، ثم بكى. احترمَ الضَابطَان وضعه، وابتعدا عنه، وتركاه يبكي حتّى فرغ من بكائه.

بعد عودته من المسجد مرّ بمكتبه في القلعة. عيَّن مكانه الأميرلاي نجيب باشا حتّى يستكمل بقيّة إجراءات الانسحاب الكامل من المدينة المنوَّرة. أخذ أوراقه، ولبس زيَّه العسكريَّ، وتوشَّح بنياشينه، وتقلَّد سلاحه. برم طرف شنبه إلى الأعلى، وخرج من المدينة وبرفقته ما تبقى من جنوده. اتَّخذوا سيرهم نحو الفريش، ثم إلى ينبع حيث كانت تنتظرهم هناك سفينة إنكليزيّة حملته أسيراً إلى القاهرة عبر السويس.

٣٣

خانُ المحطّةِ – دمشق – ٢

وصلتني الأخبارُ هنا في دمشق أنَّ فخري باشا قد غادر المدينة المنوَّرة برفقة ما تبقى من جنوده، وتمَّ تسليمه لسفينة إنكليزيَّة تابعة للحلفاء أقلَّته من ميناء ينبع إلى القاهرة، حيث لبث هناك مسجوناً شهرين قبل أن تحمله سفينة أخرى إلى مالطا ليقضي بقيَّة سجنه في سجن معزول هناك. هذا ما وصلني من أخباره حتَّى الآن.

وسمعتُ أنَّ حكم المدينة المنوَّرة قد آل إلى الشريف.

مع انتشار هذه الأخبار بدأ المدنيون المهجَّرون يستعدون للعودة إلى المدينة المنورة. وقررت أن أعود إلى أُمِّي. لم يبقَ هناك من شيءٍ يمنع عودتي. لكنَّ الأخبار الجيدة كانت تتبعها أخبارٌ سيئة. وصلتنا الأنباء السيئة بأنَّ خط الحجاز الحديدي قد دمَّرت قوات الحلفاء الكثير منه، وقصفت بالطائرات عربات القطار وسكة الحديد حتَّى لا يكون سبباً في إمداد الحاكم العثماني بالجنود في الحجاز. واستولى الأعرابُ والبدو على الحطام وما تبقَّى منه.

كانت عودتي المقرَّرة إلى مكة المكرمة ستكون عبر قطع الصحارى

والفيافي، ما يجعل هذه العودة أخطر بكثير ممَّا كانت عليه بوجود القطَّار.
وانتابتني الهواجسُ: ماذا لو وقعتُ أسيراً مرَّة أخرى بيد اللصوص وقطَّاع الطرق وباعوني كعبدٍ؟ هل سأضمنُ العودة سليماً إلى مسقط رأسي؟

أشار عليَّ أحدُ رجال المدينة، الذي كان يسكن في خان المحطَّة، ألا أستعجل العودة؛ الأمنُ منفلتٌ وليست هناك أيُّ ضمانات للبقاء حيّاً لأيِّ شخص. عقدنا في الخان مجلساً للتشاور ضمَّ الكثير من المدنيين الذين تركوها مكرهين، واقترحوا بعد آراء كثيرة متباينة أن نشكِّل قافلةً كبيرةً محميَّةً بالسلاح لنعود إلى ديارنا مرَّة أخرى بسلام.

لبثتُ في دمشق نصف عام، وفي كلِّ مرَّة، كنتُ أصطدمُ برغبة المهجَّرين عن العودة إلى المدينة المنوَّرة. كانت حججهم لا غبار عليها، فقد كانوا يردِّدون أنَّ السفرَ في مثل هذا الوقت وهذه الظروف ليس آمناً، وأنَّ علينا الانتظار ريثما تهدأ الأحوال هناك، ولنتمكَّن من جمع أكبر عدد من الراغبين في العودة.

أشار علينا أحدُ الرجال بالانتظار حتى موسم الحجِّ، إذ سنغادر مع محمل الحجِّ الشامي في قافلة كبيرة. وقال لنا إنَّ المحمل يتحرَّك قبل الحجِّ بثلاثة أشهر على الأقل. ومن الأفضل إخطارهم برغبتنا في مرافقتهم قبل وقتٍ كافٍ.

حسبتُ في ذهني المدَّة المتبقية والمقترحة للخروج، فوجدتُ أنَّه قد بقيَ منها شهران وبضعة أيام.

هل سأصبرُ كلَّ هذه المدَّة؟

لا أعرفُ، ولكنَّني لن أغامرَ بالعودة وحدي أو في نفرٍ قليلٍ من المسافرين. لبثتُ منتظراً والأيام تمرُّ بطيئةً ثقيلةً حتَّى حان موعد السفر.

٣٤

خانُ المحطّةِ – دمشق – ٣

بصعوبةٍ أقنعنا مسؤول الحجِّ الشامي بضمِّنا إلى قافلته. شرحنا له ظروفناً وحالنا البائسة، فوافق بعد لأيٍ ومشقَّة. اشترط علينا ألا نشارك أفراد قافلته الذين يقصدون الحجَّ أكلهم وشربهم لأنَّ قيمته مدفوعةٍ مقدَّماً، ومعظمهم كانوا فقراء، وقد باعوا كلَّ ما يملكون ليتمكّنوا من حجِّ بيت الله الحرام. كما عهد لنا أمراً أشد مرارة في النفس، فقد اشترط علينا أنْ نحفرَ قبوراً، وندفنَ مَن يتوفاهم الله أثناء المسير إلى الحجِّ. وتذكَّرتُ، والأسى يعتصرُ فؤادي، الفتى فارس الذي حفرنا قبره وواريناه التراب في الصحراء بأيدينا الغضَّة (أنا ورفاقي) في تلك الرحلة المشؤومة.

قال لنا أميرُ الحجِّ الشاميّ مختتماً حديثه: "إنَّ كلَّ ما أستطيع توفيره لكم الحماية والركائب بعد دفع أجرتها، ولا شيء غير ذلك".

وافقنا على شروطه، فقد كان كلٌّ ما نرغب فيه هو الوصول بسلامة إلى الديار التي غادرناها مكرهين.

ودَّعتُ بهية هانم، مالكة الخان الذي لبثتُ فيه ما يقارب نصف

العام متجرّعاً الغربة والوحدة ساكناً ثمّ عاملاً فيه. لم تستطع بهية هانم منع دموعها من النزول على خدّيها، وودّعتُ كذلك رفاقي العاملين في الخان، فكان وداعاً قاسياً سفحنا فيه الكثير من الدموع والآهات.

بعتُ آسفاً وبثمنٍ زهيدٍ المخطوطات التي كانت تخصُّ السيِّد عبد الرحمن المدنيَ أو تخُصُّ مكتبة عارف حكمت بمعنى أصحّ. بعتها لضيق ذات اليد، فلم أكنْ أملك أجرة السفر إلى المدينة ومكة. اشتراها منّي صاحب مكتبة في سوق الحميديَّة بثمنٍ بخس رغم معرفتي ومعرفة صاحب تلك المكتبة أيضاً بأنّها نادرةٌ ولَا تُقدَّرُ بثمن. لكن هذا المبلغ الزهيد كان كافياً لأدفع ما عليّ من مالٍ كُلفة عودتي.

٣٥

درعا – جنوبُ دمشق

اتَّفقنا مع مسؤول الحجِّ الشاميّ أن نلتقي في درعا التي تبعد عن دمشق مسافة يومين من المسير المتعجِّل. قبل موعد اللقاء بعشرة أيام، انطلقتُ مع ثُلَّةٍ من رجال المدينة إلى درعا، ووصلناها بعد مُضي يومين من السفر. لمحنا بيوتها الحجريَّة تلفُّها غلالةٌ رقيقةٌ من ضباب وأتربة. استأجرنا بيتاً يقعُ بالقرب من مربض القوافل، ولبثنا هناك في انتظار القافلة، وقد شملنا صمت الغرباء الذين طعن الحنين والوحدة والغياب قلوبهم فأدماها. بعد مرور ثمانية أيام، جاء مسؤول الحجِّ الشامي هناك برفقة الحجّاج. لبثوا في درعا أياماً قلائل لينالوا قسطاً من الراحة. في نهاية اليوم الثالث تحرَّكت قافلتنا من درعا ذات فجر. انطلقنا على بركة الله في قافلة كبيرة نحو بيت الله المحرَّم. كانت القافلة محميَّةً برجال مسلَّحين، وهم من الكثرة التي تجعل مَن يفكِّر في مهاجمتها أنْ يعيدَ التبصُّرَ في عواقب الهجوم عليها ألف مرَّة. كان سير القافلة بطيئاً متمهلاً، فهي لم تكن تسير إلّا مع الزوال، تحاشياً للشمس وسخونتها. مررنا بمدن وقرى كثيرة. وصلنا بصرى

الشام، فارتحنا قليلاً، ثم انطلقنا حتّى اقتربنا من أذرعات، ثمّ معان، والمدوّرة، وحالة عمّار، وذات الحاج. وصلنا تبوك فأخذتُ أبحثُ عن المكان الذي خَلدتُ فيه إلى الراحة أثناء تهجيري من المدينة، فوجدتُ أنّ تلك الغرف هُدمت وبُني غيرها بشكل أجمل وأوسع. لم نلبثْ في تبوك إلّا يومين فقط. تحرّكت قافلتنا من تبوك فوصلنا الأخيضر، ثمّ المعظم، والأقرع، ثم الحجر (العلا). وحالما خرجنا من وادي القرى توفي حاجٌ مسنٌّ، فاضطررنا إلى حفر قبر له ودفنه كما اشترط علينا متصرِّفُ القافلة. بعد الانتهاء من دفن ذلك الحاج المسكين، انتابني هاجس بأنّني ربما أموتُ هنا قبل أن تكتحل عيناي بمرأى أُمّي لكنّ الأمل لا يزال باقياً، وسأقاتل حتّى أحققه بإذن الله. وصلنا مغيراء منهكين، فلُذنا إلى الراحة وتناول ما تيسّر من الطعام. انطلقنا بعد ظهر اليوم التالي إلى زمرد، ثمّ البئر الجديدة، وهدية. مررنا بالفحلتين، وحالما وصلنا آبار نصيف أعلن متصرِّفُ القافلة أنّه بقيت لنا مرحلة واحدة للوصول إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان طريق أوبتي أطول من طريق ذهابي، فبالقطار سافرتُ إلى الشام ووصلتها في غضون ثلاثة أيام، ثم عدتُ إلى هنا بعد سفر قارب شهرين ونصف الشهر.

اجتزنا قرية الحفيرة بعد أن قطعنا الفيافي والقفار التي بقيت من الوصول إلى المدينة المنورة وأنا لا أكاد أتماسك، فقد كنتُ في حالة هي مزيج غريب بين الفرح والحزن. مشاعر شتّى تتناوشني لمْ أستطعْ أنْ أقدِّم تفسيراً منطقيّاً لها.

٣٦

المدينةُ المنوَّرة ١٩١٧

وصلنا ذات أصيلٍ إلى مدينة رسول الله، بعد شهر ونصف الشهر، من مسير أيام طويلة في الفلوات المتربة والصامتة. لاحت لنا من بعيد حرّتاها وبيوتها وبساتينها تنكفئ حول ذاتها تنتظر حلول الظلام. وبرزت في عقلي فجأةً ذكريات دخولي إلى المدينة المنورة، فقد كان في التوقيت نفسه، وسأدخل من البوابة نفسها التي دخلتها من قبل وإن تهدَّم جزءٌ كبيرٌ من سورها. حمدتُ الله - تعالى - على نعمه التي لا تُحصى، وحينما خطوتُ فيها بخطواتي بعد غياب، وجدتُ أنَّها لَمْ تكنْ تلك المدينة التي أعرفها ولبثت فيها قرابة عامين ونصف العام. بدت لي خاويةً على عروشها، وقد خفَّ وهجها. الناس الذين فيها كانوا قليلي العدد. رأيتُ وجوهاً غريبةً لَمْ أرها من قبل. حركتها وصخبها وحيويتها المعروفة عنها تلاشت، فأصبحت كأنَّها أُمّ ثكلى تدثَّرتْ بعباءةِ الأحزان. بحثتُ عن سيِّدي عبد الرحمن المدني. ذهبتُ إلى بيته في زقاق الطيَّار فوجدته فارغاً تصفِّرُ فيه الرياح، فلا أبواب ولا نوافذ له. تهدَّمت معظمُ جدرانه، وزحفت

الشجيرات والأعشاب إلى ساحته الكبيرة التي كانت تُعقد فيها أماسيه برفقة أعيان المدينة ووجهائها ومن أهل العلم. ذهبتُ إلى بيته الآخر في حي المستراح، فوجدته قد تحوّل إلى إسطبل لخيول الجنود، وقد امتلأت حجراته وفناؤه بروث الخيول، وقادتني خطواتي إلى بيته الثالث في زقاق سيدنا إسماعيل - عليه السلام - فوجدته مهدَّماً وممتلئاً بالقاذورات والجيف التي تصاعدت روائحها العفنة حال دخولي إلى فناء البيت. طفرت الدموع من عيني رغماً عنّي، وعدتُ أجرُّ أذيال الخيبة إلى موقع قافلة الحجِّ الشامي.

طوال المدة التي لبثت فيها القافلة في المدينة المنوَّرة سألتُ أناساً منِ هنا وهناك، فلمْ أجدْ أيَّ إجابةٍ عن مصير الرجل الصالح عبد الرحمن المدني. لم أسمح لليأس أن يتسرَّب إلى نفسي، فذهبتُ إلى مكتبة عارف حكمت لأسأل إبراهيم أفندي عن مصير الوجيه عبد الرحمن المدني، فوجدتها مقفلة الأبواب وقد خيَّم الهجرُ على جدرانها. وقد علمتُ أنَّ فخري باشا نقلَ بالقطار كلَّ ما فيها من كتبٍ ومخطوطات إلى الشام، ونقل كذلك كل الكتب والمخطوطات في المكتبة المحموديَّة التي أمرَ بتجديدها وملئها بالكتب والمخطوطات الخليفةُ العثمانيُّ محمود الثاني، وأرسلها إلى إسطنبول.

كان الأملُ يحدوني أنْ ألقاه في جدَّة، فهي قريبة من مكّة. سأذهبُ إلى جدَّة، وأبحثُ عنه بكلِّ تأكيد. سأعتذرُ منه على تفريطي في المخطوطات الثمينة، الأمانة التي كانت معي. سأشرحُ له ظروفي، وبكلِّ تأكيد سيعذرني على ما فعلتُ. لبثنا في المدينة أسبوعاً ريثما ترتاح الرواحل والحجاج من وعثاء السفر، ويتزوّدون بالمؤن التي

تعينهم للوصول إلى بيت الله الحرام في مكّة المكرّمة.

ذات فجر، تحرّكت قافلتنا صوبَ مكّة بعد أن أدّينا صلاة الفجر في المسجدِ النبويّ الذي بدا لي في ذلك الفجر مكاناً حزيناً لفقد مَن كانوا يصَلّون فيه من أهل المدينة الذين هُجّروا وتفرّقوا في بقاع الأرض شتّى.

٣٧

مكّة المكرّمة ١٩١٨

كانت المسافةُ من المدينة المنوَّرة إلى مكّة المكرّمة تستغرق أسبوعين – على أكثر تقدير – ولكنَّ هذين الأسبوعين سيمرّان عليّ كأنّهما سنتان ثقيلتان. كانت كلّما تلاشت المسافات وتقاصرت، علا وجيب قلبي، وانثالت دموعي رغماً عنّي، وتذكّرتُ أُمّي فزادَ شوقي إليها. كنتُ ألهجُ بذكرها وأدعو الله في كلّ وقت أنْ تكونَ في أفضلِ حالٍ.

مرّت أربعةَ عشر يوماً من المسير. كان شوقي وحنيني يشكّلان امتداداً طبيعيّاً للصحراء التي أقطعها يوماً وراء يوم، ويتسامقان متماهيين مع الجبال البعيدة التي تتدثّر بغلالة ضبابيّة من الأتربة العالقة في الهواء. كنتُ أشعرُ في تلك الأيّام كأنّنا نعبرُ أرضاً سحريّة، فما إن تنطلق من مكانٍ، حتّى تعودَ إلى المكان نفسه بعد طول مسير! في اليوم الخامس عشر، وصلنا إلى التنعيم خارج مكّة، من جهة الشمال. ما إن أنخنا الرواحل في التنعيم، حتّى تركتُ القافلة غير آبه بصيحات متصرّفها للعودةِ والدخول برفقة الحجّاج إلى مكّة. أخذتُ أقطعَ

المسافة القليلة إلى مكّة تارةً ماشياً، وتارةً مهرولاً، وقد استبدّ بي الشوقُ لرؤية أُمّي.

وصلتُ إلى الحرم المكي لاهثاً، فلمحتُ مآذنه وأبوابه والبيوت والأسواق التي تحيط به. مكّة بلدُ الله الحرام لا تزال تدبُّ في شوارعها وحاراتها وأزقّتها تلك الحركة اليوميّة المألوفة، ويتناهى إلى مسامعي أصواتُ الباعة الرخيم الممطوط الحروف والكلمات التي سمعتها من قبل، وقد ازدادت دفئاً ومحبةً، أو هكذا خُيّل إلي. شعرتُ كأنّني شجرةٌ كادت تموت من الظمأ قبل أن يُعاد سقيها لتحيا من جديد. تركتُ كلَّ شيءٍ وراء ظهري، وصوّبت وجهتي جنوب مكّة سائراً نحو أُمّي، وخيمةِ الشَّعَرِ، بيتي الذي لمْ أنسهُ، والذي شهد على ترهات سنوات طفولتي، ولم يغبْ عن بالي طوال السنوات الماضية. وامتلأ جوفي بالتفاؤل، فلربما وجدتُ خالي مانع هناك، فأنا أثقُ بقدرته على تلافي الصعاب ليستطيعَ الاستمرار في العيش، لمعرفتي بصبره وجَلَده.

٣٨

بطحاءُ قريشٍ: جنوب مكّة المكرّمة – ٢

حالما خرجتُ من النطاق العمراني وتركتُ مكّة ورائي، حتّى انفتحت الصحراءُ أمامي مثل كتابٍ مفتوحٍ. فشعرتُ أنّني أنتمي إلى هذه البيداء؛ جذوري مغروسةٌ هنا في هذا المكان ولا يمكنني العيشَ في سواه. زاد خفقان قلبي واضطرب تفكيري؛ المخاوفُ التي لازمتني طوال السنوات الماضية انبثقت فجأةً من بؤرة الذاكرة إلى سطحها، فكنتُ تارةً أبكي، وتارةً أضحك، وكان مَن يراني على هذه الحالة يظنُّ بي الظنون. كنتُ أعرفُ الطريق وأحفظه تماماً، فقد مشيتُ فيه مع أُمّي وخالي مانع ذاهباً وقادماً من كتاتيب الحرم، وزيارة الكعبة المشرّفة، والطواف بها، والشرب من ماء زمزم. عبرتُ شعاباً موحشةً لا حياة فيها. كنتُ في كلّ خطوة أستدعي الأمل بلقاء أُمّي، وأشيّد جدرانه بالكلمات والأمنيات لعلّها تكون بخير. وتوغلتُ في طريقي، وظللتُ سائراً نحو بطحاء قريش حتّى لمحتُ خيمةَ الشَّعَرِ.

كانت لا تزال منصوبةً في مكانها كأنّها بهشاشتها تعاندُ ظروفَ الزمان وقسوة المكان. حالما رأيتها جثوتُ على ركبتيَّ، فشممتُ

كلَّ الروائح، واسترجعتُ كلَّ الذكريات بصورها المتلاحقة. لمحتُ قبرَ والدي الذي يبعد قليلاً عن خيمةِ الشَّعر وقد نبتتْ بجانبه شجرةُ سدرٍ وارفةٌ ذات خُضرة داكنة. درتُ ببصري لعلّني أرى خيمة خالي مانع لكنَّني لمْ أرها في مكانها المعتاد، فقد كان موقعها بلقعاً تصفِّر فيه الرياح. فهمتُ كلَّ شيء؛ يبدو أنّه لمْ يعدْ منذ ذلك اليوم المشؤوم. أعرفه تمام المعرفة، فهو يفضِّل أن يكون بمفرده ولا يحب أنْ يشاركه أحد مكان نومه وراحته. وبكيتُ كما لم أبكِ في حياتي من قبل. هذه هي جنّتي الصامتة القابعة بين كثبان الصحارى التي لا يُسمع فيها سوى أصوات الريح، ويُرى في عمقها الموحش ألق الفراغ وعنفوانه، وتكتسي بمسحة من غموض غير مفهوم. أدركتُ أنَّني قد عدتُ مرَّة أخرى إلى الديار، ولكنَّني عدتُ مثخناً بالهزائم التي غذَّتها صنوف من المحن والبلايا التي لم يبقَ منها سوى ذكرى مبتذلة لا معنى لها. نهضتُ متحاملاً على قدميَّ وقد أثقلني وجعُ البعاد، ووجدتُ نفسي فجاةً خفيفاً، فأطلقتُ ساقيَّ للريح، وأنا أصيحُ كالمجنون: "أمَّاه... أمَّاه... لقد عاد ذيبك مرَّةً ثانيةً!".

لمحتُ شيئاً يخرج من الخيمة. كانت هي. نعم، كانت هي! كانت تمسكُ إناء بيدها اليمنى، ووضعت ظاهر يدها اليسرى على وجهها لتتحاشى ضوء الشمس، وحالما سمعتْ صوتي، ولمحتني مقبلاً نحوها، سقط الإناء من يدها، ولم تستطع المشي خطوةً واحدةً.

جثتْ على ركبتيها وهي ممدودة اليدين إلى الأمام. اقتربتُ منها وارتميتُ في حضنها، وقبَّلتُ رأسها ويديها، ووضعتُ رأسي على الأرض، ولثمتُ قدميها. حالما وضعتُ خدّي على صدرها،

وشممتُ رائحتها، عدتُ طفلاً صغيرَ السنِّ، وشعرتُ كأنَّ غيابي عنها لم يلبث ثلاث سنوات وبضعة أشهر، بل إنني - ويا للغرابة! - احسستُ كأنَّني لم أذهب إلى أيِّ مكان، ولمْ أغادر أُمِّي ولا خيمةَ الشَّعَر. شعرتُ كأنَّني كنتُ في حلمٍ مفزعٍ سرعان ما انتبهت منه لأجدَ نفسي في أحضانها من جديد.

الحكايةُ لم تنتهِ، على الأقل بالنسبة إلي. فبعد البحث عن مصائر شخصيّات هذه القصّة حصلتُ على معلومات غير مؤكّدة حول ما حدث لهم باستثناء الحاكم العسكري للمدينة المنوّرة فخري باشا، فكتبُ التاريخِ قد أخبرتنا في صفحاتها عمّا حدث له بعد خروجه من سجنه في جزيرة مالطا حتّى موته، ولكنّني أرى نفسي ملزماً ذكرها لكم في نهاية هذه القصة.

الوجيه عبد الرحمن المدني

غادر المدينة المنوّرة برفقة جاريته مرجانة بعد تهجير ذيب إلى الشام بثلاثة أيام. سافر بعد أن دفعَ مالاً كثيراً ليتمكّن من الخروج من المدينة بسلام، إلى ابنته وزوجها في جدّة. لبث هناك حتّى انقضاء الأزمة، وقد زاره ذيب بعد عودته بحوالى عام. بحث عنه في جدّة ووجده في بيت ابنته وزوجها في حارة المظلوم، وقد كان لقاء الرجلين عجيباً، فقد التحما في عناقٍ حارٍّ تخلّلته الدموعُ والمشاعرُ الفيّاضةُ.

بعد هذا اللقاء الذي أثار شجون الوجيه قرّر عبد الرحمن المدني العودة إلى المدينة المنوّرة، وتوفيّ بعد شهور قليلة من عودته، ودُفن في مقبرة البقيع، وقد كان ذيب يتعهّد زيارة قبره كلّ عام أو عامين، فيقف على قبره مترحّماً وداعياً له ومتصدّقاً عنه.

الجارية مرجانة

قِيل أنَّها ماتتْ في المحجر الصحي أثناء وجودها في جدَّة برفقة سيِّدها عبد الرحمن المدني الذي أعتقها في إحدى المحاكم من العبوديَّة وسلَّمها صكَّ عتقها في يدها، وقِيل أنَّ سبب موتها هو إصابتها بمرض التيفوئيد الذي انتشر في تلك الحقبة وحصد أرواح الكثير من الناس.

فخري باشا

أُقتيد إلى مصر بسفينةٍ حربيَّةٍ بريطانيَّةٍ كانت راسيةً في ميناء ينبع، ولبث في القاهرة سجيناً شهرين حتَّى يومَ تسفيره إلى مالطا، حيث استمرَّ سجيناً هناك عامين حتَّى الإفراج عنه في ٢٨ أبريل ١٩٢١ في عملية تبادل للأسرى بين تركيا ودول الحلفاء، وانتقل إلى أنقرة، وتمَّ تعيينه سفيراً في كابول. وبعد انتهاء سفارته في كابول عاد إلى تركيا، ومات في إسطنبول عام ١٩٤٨، ودُفن في مقبرة أشيان أسري.

مانع

خالُ ذيب بطل قصتنا، تمَّت مقايضته بعبدٍ آخر في قافلة أخرى بعد يوم واحد من خطفه، وقُتل أثناء محاولة هربه من قافلة للعبيد كانت في طريقها متَّجهة إلى نجدٍ، وقِيل أنَّه دُفن في مكان غير معروف بين الطائف ونجد.

إبراهيم أفندي

ناظرُ مكتبة عارف حكمت في المدينة المنوّرة. هاجر إلى مصر بعد تلك الأحداث الدامية. عاش سنواتٍ قليلةً في القاهرة لكن صحته اعتلّت، ونصحه الأطباءُ لكي تتحسّن صحته بالانتقال من القاهرة إلى الإسكندرية أو واحدة من المدن الواقعة بالقرب من البحر. وقد مات في طريقه نحو الإسكندرية، في مدينة طنطا تحديداً، فدفن في إحدى مقابرها.

ذيب

عادَ إلى مكّة بعد وفاة أُمّه وقد دفنها بقرب قبر أبيه في الصحراء أسفل شجرة السدر. قِيل أنّه عمل مطوفاً للحجّاج والمعتمرين في الحرم المكيّ، ومكث في هذه المهنة حتى وافاه الأجل، فمات عام ١٩٥٥، ودُفن في مقابر المعلاة بالقرب من الحرمِ المكيّ.

ترك ذيب ذريّةً مكوّنةً من بنتين وولد واحد اسمه عبد الرحمن. الجدير بالذكر أنّني قد عملتُ زميلاً لشاب من أحفاد ذيب في واحدة من المدارس النائية التي تقع بين جدّة والمدينة المنوّرة، وقد تزاملنا مدّة عام واحد في ١٩٩٢، أوّل سنة لي أعمل فيها معلّماً. كنّا نسكنُ معاً في بيتٍ مكشوفٍ في العراء ومبني من الحجر، ويقعُ بعيداً عن بيوت القريَة التي كنا نعمل فيها معلّمين. قضينا جُلّ أوقاتنا في تبادل الحديث والحكايات في الليالي المقمرة وحولنا الجبال بصمتها المهيب، والصحراء في الطرف الآخر بامتدادها الشاسع المحرّض

للخيال، في ذلك المكان النائي والمكشوف. وإذا سئمنا الحديث، كنا نستمع للراديو، إذ كان الوسيلة الوحيدة المتوفرة للترفيه في ذلك المكان آنذاك. وأحياناً كنّا نسافر في نهاية الأسبوع الدراسي إلى المدينة المنوّرة التي كانت تبعد عن القرية التي نعمل فيها مسافة ١٨٠ كلم لنتعرّف عن قُرب على مواقع أحيائها القديمة، وما تبقى من محطّة القطار، وأحواشها، وأزقتّها، ومكتباتها، وما بقي من بيوتها القديمة المزينة بالرواشين وألوانها الفاتنة. كنّا نسافر بسيارة متهالكة قديمة الطراز دفعنا سعرها مناصفة بعد تسلّمنا أوّل راتب شهري نتقاضاه في حياتنا العمليّة، لتنقلنا إلى المدرسة التي نعمل فيها معاً. هذه السيارة القديمة طالما خذلتنا في الطريق الصعب والوعر، فكنّا نقضي ساعاتٍ طويلةً في انتظار مرور سيارة لتنقلنا إلى الطريق الدولي الرابط بين المدينة المنوّرة وجدّة، لنكمل السفر إلى وجهتنا المختارة. وقد أخبرني بنتفٍ من قصّة جدّه ذيب، وهو اسم مستعار بكلّ تأكيد للضرورة الروائيّة والاعتبارات الشخصيّة، تلك القصّة التي رويتُ لكم جزءاً منها في هذه الرواية مع إضافة الخيال الروائي بالطبع في الكثير من أحداثها التي كان ذيب يحكيها قبل موته على أولاده، ثمّ حكاها الأولاد للأحفاد فيما بعد، كما قال لي حفيده. والغريب أنّني بحثتُ عن هذا الزميل كثيراً بعد أن تفرّقت بنا السُبل، فحصلت على معلومات شبه مؤكدة أنّه قضى نحبه في حادث مروري مؤلم في الطريق السريع الواصل بين مكّة وجدّة عام ١٩٩٨، فليتغمده الله برحمته حيّاً كانَ أو ميتاً.

البريد الإلكترونيّ للمؤلّف:

Makboul2000@hotmail.com

‘كاتب مبدع ولغة جميلة‘

جريدة ‘السفير‘

يقع ذيب أسير الجنود العثمانيين مع اندلاع الثورة العربية الكبرى. يُرحّلُ إلى دمشق أسوة بأبناء المدينة المنورة الذين عانوا بطش الحاكم.

ذيب الذي سبق أن اختُطف طفلاً من مكّة المكرمة وبيعَ كعبد، يجد نفسه في دمشق عاملاً في خان تملكه سيدة بانتظار رحيل العثمانيين.

رواية تسلّط الضوء على حقبة مهمّة من تاريخ الجزيرة العربية، مرحلة ما يعرف بـ‘سفر برلك‘.

مقبول العلوي روائي وقاص سعودي. صدر له عن دار الساقي: ‘فتنة جدّة‘ (القائمة الطويلة لجائزة ‘بوكر‘ العربية 2011)، ‘البدوي الصغير‘ (جائزة ‘سوق عكاظ‘ 2016)، ‘زرياب‘ (جائزة أفضل رواية لكاتب سعودي، معرض الرياض 2015)، ‘القبطي‘ (‘جائزة الطيب صالح‘ 2016)، ‘طيف الحلاج‘، ‘زهور فان غوخ‘.

